هيدرانجيا

ماريا زاهيد

قصة

قصة

هِيدْرَانجِيا

مارية زاهيد

معلومات للتواصل مع الكاتبة:

البريد الإلكتروني: alwatfae@gmail.com

رقم الهاتف: 212697550589+

إهداء:

ليسَت لفئة معينة.. لم تُكتب لحاجةٍ رغبت بها..

هي فقط كلماتٌ متحشرجة تتمخّض في الصدور..

مُساءلات باهتة..

باقة من الكلمات والجمل، إلى كل من قرأ العنوان.. وتأمَّل الصورة به..

إلى كلّ من تساءل عمّا تحملُه هذه القصة في طيّاتها..

إلى العالم..

إلى الكون والنّاس أجمعين..

أهدي هذه الحكاية معطّرةً بزهور الهيدْرَانجيا...

الشّمس لا تُشرق دائمًا لصباح جديد،

لا يُنسينا ضياؤُها مرارة غُصّة طعنّا بها ليلًا..

وإن رجونا شعاعها بحرقة... ما تزال الحقيقة أقوى من ديباج اللّيل..

ستعود الهموم لتغطي كلّ شيء من جديد، كما فعل شعاع الشّمس..

أزهار الهيدرانجيا تلك، سرعان ما ذبلت ذاك اليوم، وإن كانت تشرق كما الشّمس بكَوْمَتها المُمتلئة.. وتنشر أريجَها نفحاتٍ صعبةَ الاستنشاق..

ما عاد اليوم كما الأمس..

لمْ يغيِّر الصباح شيئًا..

نَفحة أُولى: القَلبُ المُخلِص

"سيكون عليك أن تتوقّع كل شيء.. لم يكن الحبُّ يومًا بريئًا من كل شائبة."

رفع بصره نحو السّماء، زجاج النافذة رغم سُمكه، يمرّر أشعّة لا بأس بها لتضيء كل ركن في الغرفة.. الغبار على حافّتها له رائحة.. يستنشقها بمهل.. تأمّل السّماء للحظة، شعر فيها بثقل همومِه ينزاح رُكامًا ركامًا.. السُّحب القطنية تمُّر بانسياب.. لكنها لم تجترِئ على قرص الشمس العظيم، الأشعة تقرص عينيه، يتحملها لـمُهلة بعد..

لم يكن صوت العالم خارجًا يصلُه، النافذة المغلقة ظلّت كمعزلٍ فعّالٍ.. لا أحد يراه من خلفها وهو يُبصر الكون على مد البصر، ولا أحد يسمعه.. وهو بِيده يتحكم في الصوت الذي يريد من أذنه أن تلتقطه.. شغّل تسجيلًا قديمًا.. صوتها يحرك شيئًا بفؤاده ما يزال.. لهجتها تلك تعجبه، ولكنتها الريفية ترسم على وجهه ابتسامة إذا ما تدلَّت دمعة حارّة تسقي وجهه الجاف..

للاشتياق أسباب عدّة.. وهو يشتاقها لأنّ عالمه خالٍ بدونها..

هو يدرك جليًّا أن الحبّ الصافي أحلام جهلة، يستعملونه لأسباب دنيئة، يعلمونها جيدًا.. لكنه يُكنّ لها شيئًا أسمى من الحب الرخيص.. عاطفةٌ تجعله يرغب في كل شيء، ليشبع عاطفة الاشتياق التي تعتصره.

لم يتبرّم من سماعه.. في كل صباح روتينيٍّ، يتأمل النافذة، ويستنشق غبارًا غريبًا.. وكل حواسِّه الأخرى مع التسجيل القصير..

الكثير من الناس يشبهونه، هناك من يستيقظ على أنغام المطربة "فيروز"، تُنشد لحنًا أندلسيًّا بصوتها الملائكي، (بنظر أولئك)، ثم ما يلبث يرتشف قهوته الدافئة بهدوء، وكفّه ممسكة بجريدة

يتشرَّب سُطورها بتكاسلٍ.. علّه يركِّز على ما كتب فيها.. ثم هناك من يستيقظ على أنغام أخرى؛ لزوجة تصرخ.. أو أمٍّ تأنب، أم طفل يلعب...

لكنه وحدَه، يستيقظ على صوتها الشّجي.. ويتأمله في كل مرة؛ يحاول فهم مشاعرها من خلاله..

ينصرف لعمله باكرًا، لأنه ليس كباقي سكان مدينته المملّة.. يحاول الاستمتاع بكل شيء، وتقدير القيمة لكل شيء يمر بحياته، لا يؤمن بالصدَف.. ولا بالحظ أو غيره من التكهنات.. يتركها للجهلة المتملقين.

هو شخص خجول أحيانًا، وشديدٌ حازمٌ إذا ما دعت الحاجة.. له سرٌّ دفين بعينيه الغائرتين، لن يستطيع أحد فكَّ رمز نظرته..

لكن الكل يعشق مروره الهادئ؛ إذ يخرج من بيته الصغير بهندامٍ مرتّبٍ ومظهَر أنيق، يلقي التحية على الجميع وإن لم يصْرِف نظره ناحيتهم.. يرْكَب سيّارته وينطلق بتُؤدة.

يستعمل غالبًا الطريق الأطول ليصل محلَّ عمله، لأن الطريق الأقصر ببساطة: مزدحم، وهو يكره الضجيج والازدحام..

في طريقه نحو عمله، يُشغِّل الراديو على موجةٍ تذكِّره بصاحبة التسجيل الصوتي.. إذ كانا كلّما ركبا سيارته، صباحًا، تطلب منه تشغيله:

- البرنامج الصباحي يُبث الآن..

هكذا كانت تحفزه.. وهو الآن وحيد، يتخيلها بالكرسي جانبه تستمتع به كعادتها..

***

مرت أشعة الشمس من النافذة، شعاعها كان كافيًا ليستيقظ.. فتح عينيه مُشْخِصًا نحو السقف، تأمله كثيرًا... بدا شاحبًا ومزعجًا..

لمعت في ذهنه بعض الذّكريات القديمة، زوجته لم تكن لتتركه ينام في مكان مُتسخ... السّقف هناك تتردّد عليه عناكب مزعجة، الكثير من الخيوط تتدلى وتتشابك على المصباح..

النافذة، بها غبارٌ قديم، له رائحة غريبة، وعلى الأرض تحتها، بقايا مزهرية عتيقة.. وبعض الوريقات الجافة المنكمشة..

أغمض عينيه بقوّة، تخيّل المكان قبل سنتين.. كيف كان معطّرًا ومُزهرًا.. تذكّر المزهرية التي كانت زوجته "صفية" تصفُّ فيها كل صباح زهرات الهيدرانجيا البيضاء.. وهي تبتسم.. تُخبره:

- هذه الزهرة تشبهني كثيرًا..

كان يبتسم فقط.. هو لا يفهم لغة الأزهار، ولم يكن يومًا ليُعيرها أي اهتمام.. بل؛ يستطيع حتى تأمل جمالها.. يتفكر بألوانها، وذهنه منشغل بأمر آخر.. لا صلة له بالجمال.

"صفية"، زوجته، كانت امرأة عادية.. بنظر الجميع.. لكنه وجد فيها شيئًا يستهويه، ويرتاح إليه، ومذ الحين الذي عرفها فيه.. لم تغادر باله.

استقام.. صوب النافذة، لم يكن يشاهد الناس خلفها وكلٌّ في حياته ومشاغله منغمس.. ظل يراقب شيئا ما.. بعيدًا..

يمكنه تدبّر شؤونه، بل لا يستطيع أي إنسان مجاراة دِقّته وقوة عزمه وتدبيره.. ذاك لأن روحه، بنظره، لم تعد هائمة تتهافت على أي شيء.. صارت له صلة وثيقة بشيء ما.. يجهله.

***

- يمكنك الانتظار أكثر؟

يمكنه ذلك، يستطيع الانتظار أبد الدّهر إن سنحت الفرصة ودعت الحاجة؛ لكن الحياة لا تتوقّف عند أحد.. يحتاج أحيانًا للهرولة كي لا تضيع حياته هباءً منثورًا.. كي لا يندم يومًا لأنه ما قام بما خطر على فؤاده، ولانَ له قلبه..

جملةٌ كهذه، سمِعها لسنتين كاملتين، ما عادت تخفى عنه.. فهِمها لمرات، وحمّلها معاني شتى في كل مرة.. كيف لا وهو ما يمتلك إلا تسجيلًا قصيرًا يُداوي حزنه العميق..؟

"فؤاد"، يحتاج لراحة كافية.. ولوقت طويل؛ اعتقد أن الحياة تحتاج تضحيات كثيرة في عُمرٍ مُبكر، لتسنح له بالعيش الكريم إذا ما تردّى عظمه ووهنت قوته.. كان يعِدُها: "سنعيش معًا بعيدًا بعدما أدخر المال الكافي".. وما عادت هي هناك.. ولو ملك كنوز الأرض لن تأتِ.

- ... يمكنني أن أخمن.. أنت غاضب.. صحيح؟.. لكن.. عليك أن تفهم أنك صاحب الخطأ الجم والذنب العظيم.. ما فعلت فعلتي، إلاّ لأنني ذقت منك ما عجزت عن...

أخرس التسجيل للأبد.

قرّر، بعد كل هذه الأيام، حذفه من هاتفه.. هو لا يتحمل أنَّة صدره التي تُرجفه لمَّا يُلقى صوتها بأُذنه.. حتى أنه تعب من الانتظار ومراقبة النافذة.. وما فهم كلمةً واحدة ممَّا تلقَّفها سمعه.. فقط يعلم أنها غادرته بعد رسالتها الصوتية الغريبة.

يغادر فؤاد محلّ عمله باكرًا.. هو سائق سيارة أجرة بمدينة الدّار البيضاء.. سيّارته تلك لا يركبها إلا من أخذوا موعدًا سلفًا.. له نفسه الأبيَّة؛ فليس يشبه السائقين الأُخَر..

لا يثرثر بحياته مع أيٍّ كان.. يكتفي برد السلام، واقتراح الطريق الأطول لأن الأقصر مزدحم.. يوافق الراكب أحيانًا.. ولكنه غالبًا يخشى الغَرَر في الثمن.

في إحدى المرات؛ سمع من راكب كثير الكلام، أن زوجته هربت لأيام من بيتها، فلم يجدها بأي ركن إلى أن أرسلت له 'طلب الخلع' من المحكمة.. استغرب الرجل، فهو ما عاملها بشيء يستدعي الهرب أو الاختفاء والطلاق..

سأله فؤاد:

- أ لم تكن تصرفاتها غريبة قبل الهرب؟

حلَّق الرجل بعينيه في الطريق التي تمخرها السيارة مسرعة..

- لا.. لأصدقك القول، ما كانت امرأة عادية..

فكّر فؤاد.. لعل الرجل يُمتحن في حياته كمحنته.. بل لعله يعيش مرارة غصة تُربِكه كما يحدث معه.. حرَّك مرآة السيارة الأمامية، ليبصر وجه الرجل جيدًا، قال بعد صمت:

- ما قصدك؟

تحرك الرجل في جلسته، راقب عيني سائق التاكسي الفضولي، (كما اعتقد)، كانت نظرتهما حادة، بحاجبين مقرونين.. كثيفين، تنهّد:

- كانت مومسًا.. وتزوجتها، فاعتزلت ما فعلته ورجعت إلى الله.. لكن ما أدري ما حصل معها.

يتذكر فؤاد حواره ذاك مع الرجل كلما ركب سيارته..

- المومسات غريبات!..

قال الرجل.. فكّر فؤاد: لعلهن كذلك.

***

عام 1992، كان فؤاد شابًّا لم يبلغ العشرين بعد، لم تكن له طموحات عالية، كان يبحث عن عمل يستقل به عن والده، لذا؛ غادر قريته الأم، ولحِق بخاله القاطن بالبيضاء.

والده رجل عاديّ، فلاّح هَرِمَ في انتظار غَلة تُثمرها أرضه، وتجود بها شُجيْراته الواهية.. الغلة لم تعُد تكفيه ليتاجر بها.. ومن حظه أنه امتلك بقرة حلوبًا، وبضع أغنامٍ.. يُنفق على بيته من حليب أو صوف أو غنم عيد. لكن الفاقة تسلّلت إلى بيته، وكان أبناؤه الأربعة يرتادون المدارس فأخرجهم، وكلّفهم العمل إن أرادوا البقاء إلى جانبه.

والدته؛ امرأة عادية، تستيقظ باكرًا، تُوضّب البيتَ وتجمع الحطب، تعجِن الخبز وتطبخ وتكنس وتنظف، وإذا ما دعت الحاجة تخرج للسوق الأسبوعي ممتطيةً حمارَ زوجها الأحدب. حياتها لم تتغيّر، ولم تكن لها فتاة تساعدها على أعباء البيت، فلها أربعة أولاد.. ومن المعلوم أن: 'شغل البيت للبنات فقط'.

فؤاد كان الأكبر، وصاحب المسؤولية العظمى، نصحته والدته بالسفر إلى البيضاء حيث يملك خاله دكّانًا لبيع المواد الغذائية، أخبرته أن المدينة مكان رائع، وجميل.. حكت له عن المدنِيَّة والأضواء والمال الجزيل.. صار يطمع للسفر.

والده رفض بداية، لم يشأ من ابنه أن يلجأ للخال في أولى الصعاب التي تعترضه، خاصة وأن البيضاء مكان بعيد جدًا.. لا يسعه هو نفسه تحديد المسافة الفاصلة بين 'تَازْنَاخْت' و'الدار البيضاء'.. لكنه رضي برحيله لمّا أقنعته زوجه:

- فؤاد سيعمل ويرسل المال لنا هنا، ولن يحتاج أحد للعمل.

غادر فؤاد قريته بجذل.. ولم يشتق لها.. ولم يعد إليها.

فتى في ريعان شبابه صُدم بالحرية في المدينة، أعجبته الأضواء، وما عاد يلقي بالًا للعمل، أو زيارة أسرته بالبادية.. افتتن بكل ما رآه بالبيضاء، طرده خالُه من الدكان وهو ابن العشرين، فصار إلى الشوارع والأزقة والدروب.

لم يكن له أصدقاء كُثُر بذاك العُمر، ما كان ليحس بالوحدة أو الألم.. لم يحزن لأن خاله أخرجه رغم أنفه من داره ودكانه، كانت الحياة وردية تتلون بكل ألوانها أمامه..

تدبّر أمر ماله، وعمِل وكدّ، لكن في نهاية المطاف، لم يكن الأصدقاء الملجأ الآمن.

***

يتذكّر فؤاد كل منعطفات حياته، تمر أمامه كقطار يأبى الرحيل.. وصدى أصواته يصم الآذان، وكل ما فيه يعذبه، ويلهب نار فؤادِه.

هو يحمل بداخله نارًا تتأجج، يحترق بها كلما تذكر صفية، كلما استنشق رائحة الغبار تحت النافذة، كلما أدار محرك السيارة مُغادرًا..

يحترق بالذكريات.. ولهيب النار ذاك يؤلمه.. ولا يملك إلا الإذعان لما أصابه.

لعلّ الناس يحملون أحقادًا كثيرة تتشرَّبُها أفئدتهم، يستطيعون ردعها.. يعتقدون الانتقام الرادع الأوحد، يأبون إلا البكاء بالزوايا، والانتحاب وسط ظلام قاتم.. في النهاية يقتلهم الغيظ؛ ولا

يملكون شيئًا ليفعلوه، أخيرًا يُسامحون، بعدما أهلكهم المرض وأمضهم التعب والتفكير.. الغمُّ صنع كل شيء.. وحجب عنهم شعاع الشمس الساطع، حتى يظلوا بالزاوية المعتمة إلى النهاية.

فؤاد يشبههم.. لأنه فرد من أولئك الناس، له أحقاد دفينة. يريد تصفية الحسابات، يتمنى ذلك دومًا، وفكرة الانتقام كانت تكبر بفؤاده مذ كان بعمر الثامنة.

هو فقط؛ لم يبكِ ولم يُخبر أحدًا عن أحقاده، لم يبثّ أسراره؛ فهو لا يثق بأحد البتة.

نشأ فؤاد في كنف أسرة عادية، والدٌ من طبعه الغضب والشدة والحزم والتسلُّط، فذاك مفهوم الرجولة الذي تلقَّفه من أحضان أسرته هو الآخر.. ووالدة لا تأبه إلا لطعام تُعدُّه أو غرفة تكنسها، أو لباس تبتاعه، ولا تفوِّت لقاء الجارات اليومي وسط حقول القرية. إخوته كانوا صغارًا وقتها ليحادثهم بأمور عظيمة.. لم يكن يملك أحدًا يصغي لمكنوناته، الفتى عاش منطوِيًا على نفسه ولم تكن طفولته عادية أبدًا.

***

تازناخت مدينة هادئة، لا شيء فيها يسترعي الاهتمام، اشتهرت بزرابيها المزركشة.. كانت قريةُ فؤاد تبعد عن تازناخت ببضع كيلومترات فقط..

في صباه، دأب قصد المدينة تازناخت مع عمه "الحسين"، ليتعلّم منه الجزارة... والده كان يحثُّه على مرافقة العم يوميًّا، بعدما أخرجَه قسرًا من المدرسة.

لم يكن فؤاد آنذاك طفلًا نبيهًا أو فطنًا.. كان كغيره؛ يكره العمل، فلم يتعلّم من عمّه شيئًا قط، كانت تجربة الجزارة غير مُجدية، عاقبه والده بالسَّوط والعصا مرات ومرات ليلحَقَ عمَّه.. لكنه تخلَّف عن مرافقته في كل مرة.. وكان السوط –لأيام –جزاءه بعدما يتنبه والده لأمره.

صار كذلك لأسابيع، حتى تعب والده من ضربه.

سألته والدته مرة:

- هل هناك سبب يدفعك لترك العمل مع عمِّك الجزار ؟

كان يتمنى لو استطاع مفاتحتها بما رآه.. لكن أمه لم تكن تبدي أي اهتمام.. فما إن تطرح السؤال حتى تنادي على أحد إخوته، أو تنصرف لبعض شأنها قبل أن تسمع الرد.

***

لا يزال شيء مما سمعه فؤاد من الرجل ذلك اليوم يؤرّقه، كان يفكّر: كيف يعيد المياه لمجاريها؟ كيف يعيد صفية؟.. وكيف له أن يُنبأ بمكانها؟

بعض الذكريات في ذاكرته، ما عادت.. والذكريات وحدها كانت تسلية له عن كل ما هو فيه.. كانت تدفئه بحضن رحب.. ما كان ليحس بمرور الوقت هكذا..

سنتان من الانتظار.. سنتان من التعب والوحدة.. سنتان من التفكير العميق. أخبرته أنها تحتاج وقتًا.. واشترطت عليه الانتظار. كيف له أن ينتظر أكثر؟

- الموسات غريبات..

وصفية كانت مومسًا.. ولطالما اعتقد بغرابتها.. هو الآن يراقب سقف غرفة النوم في شرود.. يتذكر اللقاء الأول.. يحاول تذكر التفاصيل أكثر.. ملامحها يومها.. وملامحه هو.. أُنسِي الكثير..

لعلّ صفية غادرته لنسيانه المفرط.. لأنه أحيانًا كثيرة يناديها باسم غير اسمها.. وأحيانًا؛ ينسى أنها تنتظره في منتزه أو مقهى أو مطعم.. تعود حزينة مساءً، وقد أثقلت الدموع عينيها.. وهو يعتذر.

لعل الاعتذار لا يسوغ الكثير.. لعله في أحيان كثيرة يؤلم أكثر من الخطأ نفسه... لعلّه كان الغريب بينهما...

لعلها كانت تحاول جهدها لتكون امرأة عادية.. وهو ما حاول مواكبة تغيرها ذاك قط!..

***

استقام فؤاد، نظر نحو النافذة، ولم يراقب إلا السماء خارجًا.. كانت تبدو شاحبة كمرآة ضبابية.. كان يفكّر في الكثير..

ربما ما تمكن فؤاد يومًا من فهم صفية، لكنه حتمًا يرغب في معرفة سبب مغادرتها المفاجئ.. ولعله إن فعل يتمكن من إيجادها..

درأ باب بيته، وخرج مسرعًا.. ركب السيارة وشغَّل محرِّكها.. وانطلق مغادرًا.. كان يهدف لزيارة الفندق.. المكان الذي التقيا قربه أوّلًا.. المكان الذي جمعهما.. ولعله أن يكون ما فرقهما..

هو كان يثق بها.. لكنه لا يستطيع تفسير أي شيء.. لربما التقى بصديقة لها هناك؛ تخبره أنها عادت لعادتها ولما خافتْك غادرَت.. ما الإحساس الذي سيراوده وقتذاك؟ لعلها أن تكون متورطة ببيع المخدرات.. أو دين ضخم.. أو لعلها ملّته.. أو اشتاقت لأسرتها.. كلها أفكار تشغل باله..

وصل فؤاد الفندق، الشمس ما زالت متسمِّرة بالسماء، ولو أن وقت الغروب شارف على مداهمتها.. يبدو المكان خاليًا.. لا رائح ولا غادٍ.. هدوء تام يتطاول إلى الفندق.. وهو ما عهد له سكونه هذا.

خرج فؤاد من السيارة، تقدم نحو الباب يبصر من زجاجه علّه يلمح أحدًا من معارفه فيعينه على ما جاء من أجله.. تحرّك قليلًا.. مد يده نحو الباب ليفتحه، وإذ به يرى امرأة تتجه نحوه، فتراجع وانتظرها لتخرج فيسألها.

خرجت المرأة، كانت جميلة بحق.. ولعل عمرها لم يتجاوز العشرين بعد، وأدرك للوهلة الأولى أنها مومس، ولربما كانت 'شمالية' كزوجته... نظرت نحوه، وهو يتحاشى النظر لوجهها.. لاحظت سيارةَ الطاكسي المصفوفة جانبًا، سألته:

- هل أنت سائق التاكسي؟

حرك رأسه مُقِرًّا.. واتجهت هي نحوها، فتحت الباب الخلفي ودخلتها.. تبعها هو، فكر في سؤالها وهي هناك بسيارته..

دخل فؤاد السيارة، وسألها عن وجهتها.. قالت:

- لا وجهة محددة!

استغرب فؤاد، وعدّل المرآة الأمامية حتى أبصر وجهها يتوسطها، نظرت هي بدورها بالمرآة، وابتسمت بغرابة.. كانت منهمكة بتعديل تبرُّجها.. سألها:

- هل أنت واحدة من وصيات "حليمة الشمالية"؟

ابتسمت من جديد، وحركت رأسها إيجابًا، بينما حشرت مرآتها بحقيبتها الحمراء، أردفت:

- أنا أنتظرها الآن، وخشيت إن انتظرتها أمام الفندق أن أجد زبونًا آخر.. تعبت فما أستطيع مجاراة أحد اليوم.

كانت الشمس تميل بهدوء نحو محجرها.. ولوهلة اكتظ الشارع بالسيارات والمومسات وزبائن الفندق، والسيّاح.. كانت الفتاة في الخلف، تراقب الفندق بصمت.. وكان فؤاد يسأل نفسه: هل يسألها عن صفية؟ لعلها تعرفها.. لعلها تعطيه كل التفاصيل التي من الممكن أن تكون خيطًا لبداية البحث.. أو لربما انتظر حليمة الشمالية، فهي تعرفه ولا حاجة إن سألها أن يتذكر اسم زوجته المستعار.. لأنه أُنسِيَه مجددًا...

- أتت الخالة حليمة!

قالت الفتاة في الخلف، لتعيده إلى الواقع.. كانت الظلمة تنتشر شيئًا فشيئًا، خرج من السيارة كما فعلت المومس، واتجه نحو سيارة 'الكاطكاط' الزرقاء، التي صفتها حليمة الشمالية خلف سيارته.. كانت تلمع لنظافتها كلما رشق ضوء سيارة باتجاهها..

خرجت امرأة في عقدها الخامس من السيارة، شقراء.. أنيقة، ابتسمت لمّا رأت فؤادًا.. صافحته بحرارة.. سألته عن أحواله، وأشارت إلى أن السيدة التي كانت معه في السيارة واحدة من اللآتي كانت صفية وصيةً عليهن.. لم يهتم للأمر، سألها مستدركًا:

- هل ما زلت على تواصل مع صفية؟

نظرتها كانت فارغة.. ابتسمت، وأشارت للفتاة بالدخول إلى السيارة.. رافقت حليمة الشمالية فؤادًا لسيارته، جلست بالكرسي جانبه.. وأغلقا الباب.. مكثا طويلًا هناك..

كانت الفتاة في سيارة 'الكاطكاط' تراقب ما يكون من أمرهما، فتحت الباب كإشارة لتُسرع حليمة الشمالية بالخروج.. اهتزّت سيارة الطاكسي للحظة.. اشتعلت أضواؤها.. وصوت محركها يدوي.. ارتعبت الفتاة، خرجت نحوها لتتفقدها.. لكنها لم تدركها.. كانت سيارة الطاكسي قد انطلقت بسرعة بعيدًا..

نفحةٌ أخرى: اثْنا عَشرَ يومًا

"الحبّ.. شيءٌ يمكنك تخيّلُه فقط لتبتسِم.."

كيف تبدو الحياة خارجًا؟.. النافذة لم تعد تكفي للمراقبة.. شيء ما يدعوه للخروج فيأبى الرضوخ له.. مرت أيام، وما غادر بيته، هناك من يزعجه باتصالات متكررة.. لكنه لا يجيب، ولا يلتفت ليرى من المتصل.. ذهنه فارغ، وعيناه متسمرتان في النافذة، يحاول شمَّ الرائحة، لكنها اختفت.
أكان هذا نذيرًا له؟

صفية، أحبّت أزهار الهيدرانجيا، اشترتها كل أسبوع من صاحب محل الورود المجاور، كانت تصفّها أمام النافذة.. وتتيه نظراتها في المعالم خلف الزجاج.. تبتسم في هدوء، وأناملها تداعب بتلات الوردة.. تقول:

- هذه الزهرة تشبهني.

بعض بقايا الوردة ما تزال تحت.. يدوسُها فؤاد بقدميه، تصدر صوتًا.. ولكن.. ما عادت هناك رائحة...

منذ أن قرر البحث عنها، وهو يتفاجأ بما يكتشفه.. المومسات كثيرات، والدار البيضاء واسعة، بدا له أنه يبحث عن إبرة في كومة من القش.

ولذا.. ولأنه فوجئ كثيرًا بما سمعه من المومسات، ارتكب ذنوبًا عظيمة، ولأنه خاف من تسلّط غضبه من جديد، حبس نفسه ببيته منذ وقت طويل..

لكن؛ ما عاد ذاك ينفع.. له هدف يسعى إليه.. ولأنه كذلك، فسيحاول التقدم أكثر، وبحرص.. نغمة الهاتف ما تزال ترن.. حمل هاتفه دون أن يرى المتصل، وكبس الزر، جاء صوت المتصل:

- توقفتْ تحرّكاتُك مؤخرًا..!

أغلق الخط.. يحتاج إلى المزيد حتمًا، ليشبع كل ذرة فضول في نفسه.. نسي الكثير من الأمور.. لكنه يتذكر ما يكفيه ليقاتل من أجله..

سيقاتل من أجل صفية التي لطالما أحبها.. وإن كانت ذكرياتهما معًا تختفي من ذهنه.. فهو ما عاد الشاب الذي لقيته أمام الفندق يمسح الأحذية.

قبل سنوات طويلة.. لمّا لم يكن فؤاد شخصًا يفهم الكون.. شاهد بعينيه ما لم يشاهده كبير السن.. كان هو صغيرًا ليفهم.. الآن كبر وأدرك الكثير.

مذ غادر قريته، لم ير والده ووالدته، وإخوته. هو لا يشتاق إليهم.. لكنه فضولي في أمرهم من بعده.

والدته أرسلته للبيضاء ليرسل لها المال.. وهو أرسل لها أشهرًا وسنوات من الجفاء.. لعلها الآن ميتة، ملقاة بحفرة ضيقة. ولعل والده أن يكون كذلك.. (هكذا فكّر).

تُتْعبه ذاكرته، والأدهى أنه نسي أسماء إخوته.. وشكل والدته.. نسي قريته أين توجد.

نسيانه له داعٍ؛ هو ينسى ما يشاء، ويؤوي في ذاكرته ما يشاء.. ينسى والده لأنه حمّله ما لا يطيقه، ودفعه لعمّه ليعلِّمه الجزارة، أخرجه قسرًا من المدرسة، وكسّر ظهره بعصاه الخشنة... ينسى والدته لأنها لم تكن هناك.. كانت تقف جسدًا أمامه بلا روح أو حياة.. كان يكره صراخها.. يحسُّها أحيانًا كومة من الفوضى يجب أن تخرس للأبد.

ينسى إخوته المشاغبين.. لا يذكر المرة الأخيرة التي ابتسم لأحدهم فيها.. لم يكن يراهم كثيرًا.. وكثيرًا ما كانوا يلهون في بساتين القرية.. وهو كان يلهو بطريقته الخاصة مذ كان بعمر العاشرة.

حاول تجربة لعبة عمه الحسين، ووجدها مسلية إلى حد ما.. لكنه توقف عن لعبها منذ زمان.. منذ التقى للوهلة الأولى بصفية..

هو لم ينسَ عمّه، ولا صفية، ولا صديقاه المقربان..

***

عام 1992، استقبل الخال ابن أخته الذي قدم من تازناخت.. كان يبدو شابًا غريبًا.. هادئًا وغامضًا. لم يكن لقيه منذ سنوات.. فتازناخت بعيدة جدًا.. والسفر إليها يحتاج مشقة ومالًا..

بدا للخال أن ابن أخته ألِف العمل، وصار يجني قوت يومه بنفسه.. ولم يكن محل البقالة بالشيء الهين.. واستطاع بحيلته إبعاد القطط الشاردة التي كانت تتهافت على المحل كل حين.. لذا كبُر في عين خاله..

استمّر على ذلك أشهرًا.. وفي يوم من أيام الله، جاء الخال وكلّم ابن أخته، أخبره أنه اغترب كثيرًا عن بلدته، ويستحسن أن يعود.. خاصة وأن والديه لا يملكان شيئًا.. وليس لهما أحد إذا ما أرادا البحث عنه.. رفض فؤاد.. أخبره أن المسافة بعيدة، وما زال يحتاج وقتًا ومالًا..

استمر الحال على ذلك أشهرًا أخرى.. وفي كل مرة يفاتح بها الخال ابن أخته بالموضوع، يجيبه بالإجابة نفسها.. إلى أن تعوّد فلم يسأله مجددًا.

كان الخال منشغلًا بالتفكير؛ كيف يتخلّص فؤاد من القطط..؟ حتى تلك التي اعتاد على رؤيتها، لم تعد تظهر في الحي على اتساعه!

سأله مرة، وهو منهمك بقراءة بعض الكتب، كان قد قرّر الالتحاق بصفوف الدراسة مجددًا.. جلس بجانبه، سأله:

- كيف تخلّصت من القطط؟

أجابه دون أن ينظر نحوه:

- فقط، خلّصتها من حياتها التعيسة المملة.

لم يكن الخال لينتبه لكلامه باكرًا.. لكنّه لمّا رآه بأم عينيه يخلص القطط من 'حياتها التعيسة المملة'، فهم المقصود وطرده من الدكان، والدار كلها...

ما انزعج فؤاد حينذاك من الطرد.. آلمه فقط أن الدراسة ستضحى حلمًا مستحيلًا مرة أخرى.. وفي نفسه وقلبه، عدّ خاله كوالده.

فؤاد لا يستشعر حجم الخطأ الذي اقترفه، لذا لم يكن يومًا يؤنّب نفسه كما ينبغي..

الحياة دومًا ما تُريه الكثير من اللحظات التي يعجز عن فهمها.. هو نفسه، عجز الكثيرون عن فهمه.. والدته (كأي أم)، تدّعي دومًا أنها الوحيدة التي تفهم أطفالها، تعرفهم جيدًا (حسب اعتقادها)،

وتتحدّث عنهم كثيرًا، في أي مجلس نساء تملّقَ الجمعُ فيه وحاولوا مدح أطفالهم.. يعتقدون أن الأم هي الوحيدة التي تدرك رغبة أطفالها مهما كبروا.. لكنّها تخطئ دائمًا..

لم تكن تعرف شيئًا.. خاصة والدة فؤاد..

كيف لها أن تدرك كُنْه مشاعره وهي لم تحاول محادثته يومًا..؟

في يوم عادي.. استيقظت هي ووجدت أن فؤادًا بلّل فراش نومه! وهو في الثامنة، ولم يكن قد فعلها مطلقًا من قبل! بحثت عنه.. كان يحاول غسل ملابسه أمام الدار، وهي بيدها عصا كبيرة، نزلت بها على رأسه وظهره ضربًا موجعًا.. لم تتوقّف حتى رأت دماءً على الأرض..

بسبب ذلك، عانى فؤاد من ألم شديد في رأسه لأيام.. ولسنوات من بعدها.. ولم تتوقف عادته؛ فكان يبلّل فراشه لوقت طويل.. ووالدته تعيّره.. وتسخر منه في كل مرة سألته فيها إن كان يرى كوابيس في نومه..

لم تكن والدته تعرف شيئًا أبدًا.. ولم تحاول معرفة أي شيء!

***

ركب السيّارة، وأغلق الباب.. حشر عينيه بهاتفه، أغلقه.. كان الرجل بجانبه يقهقه.. سكت لبرهة يحاول نظم كلام مفهوم، إذ قال:

- ما بالك تغيّرت؟ هل تخشى أن يتعقّبوا هاتفك؟

أجابه فؤاد، وقد صرف نظره نحو النافذة، يراقب الناس في غيظ:

- أحتاج للاختباء لأكمل عملي!

شغّل الرجل بجانبه الراديو، طلب منه ربط حزام الأمان، شغّل محرّك السيّارة وانطلق مُغادرًا..

كانت سيّارة 'الميرسيديس' الرمادية مثالية للتمويه.. فسيّارة التاكسي لم تعد مجدية، بات الآن مُراقَبًا، وعليه تتبّع خطواته.. في ذهنه تعلَق الكثير من الأصوات التي يمرُّ بها، موجة الراديو تبث برنامج زوجته المفضل، وهو على الكرسي جنب السائق يراقب في صمت.. بادره الرجل بالسؤال:

- هل من أخبار عن زوجتك؟

لم يكن فؤاد ليجيبه.. الرجل يعرف كل شيء بنفسه، فهو مصاحب له منذ زمان.. قبل أن يوظَّف ليصير شرطيًّا حتى، وما كان يومًا يعتقد أن مهنة الشرطي، تمويه آخر سيساعده في كل ما هو فيه.

أرخى فؤاد جسده، قال بعد لحظات:

- لست أدري.. أعتقد أنني في مرحلة حرجة.. نسيت متى التقيت بصفية آخر مرة! ربما يكون ذلك قبل يوم أو يومين، أو ربّما سنة.. أنت من عليه أن يذكّرني متى التقيت بها؟

ضحك الشرطي، أغمض فؤاد عينيه مردفًا:

- لا أدري لمَ أنسى كلّ شيء يتعلّق بها..

صمت الشرطي للحظة، خفف السرعة، قال بهدوء:

- هذا لأنك تجبر خاطرك على تذكّرها.. فهي غادرتك منذ سنوات على الأقل، وأخبرتَني أنها تركت ورقة الطلاق على الطاولة التي اعتدتما تناول طعامكما عليها..

شزر إليه.. صمت الشرطي، تنهد.. بينما فؤاد ما يزال متكئًا على الكرسي يحاول التذكّر..

- لا أدري لمَ تنسى شيئًا كهذا..! أحاول جهدي لأساعدك، لكنك تأبى.. عليك كتابة كلّ شيء تتذكّره حتى تقرأه عندما تنساه.

جلس فؤاد جلسة مستقيمة، أدار رأسه ناحية الشرطي الذي أوقف السيّارة وصار يراقب الرصيف في ذهول.. ابتدره فؤاد قائلًا:

- ترجّل من السيّارة الآن! وابحث عن واحدة تكون بعمر صفية لمّا التقيتُها.

ابتسم الشرطي، بينما عيناه منهمكتان في الانتقاء:

- تقصد في العشرين؟!.. لا تخف! طلبك عندي..

حرّر فؤاد نفسه من حزام الأمان، وكذلك فعل الشرطي، نصحه فؤاد أن يتصرّف بهدوء ومرونة، بعد أن أثنى على ذقنه وشاربه الحليقين:

- هكذا لن يتذكّرك أحد!

ابتسم الشرطي، سأله:

- كم تبقّت من واحدة؟

رفع فؤاد قبضة يده، حرّر منها أصبع السبابة والوسطى قائلًا:

- اثنتان.

تهلّلت أسارير الشرطي:

- وبعد قليل واحدة.

قال.

يبدو الفندق في الصباح الباكر خاليًا، إلا من المومسات اللآتي خرجن للتو منه، بعضهن ينتظرن من يقلّهن، وأخريات رافقن زبائنهن.. وبضع منهن يحتجن زبونًا آخر الآن..

خرج الشرطي من السيّارة، كان في عقده الرابع، وسيمًا، طويلًا.. حسن البنية، بوجه حليقٍ.. يبدو مثاليًا لأي امرأة.. وحتى لمومس في العشرين..

اِحتاج فؤاد للمغامرة، هو يراقب الشرطي والفتاة الجميلة التي ابتدر بالحديث إليها، كان يفكّر مبتسمًا: كيف أن اثنا عشر يومًا من الراحة أجدت هكذا؟.. صار صديقه الشرطي متمرّسًا.. يستطيع ترك كل شيء على عاتقه الآن.. ليتمكن هو من تنسيق باقتي الهيدرانجيا الأخيرتين.

***

- تمّ العدد الآن!

قال مقهقهًا.. تبدو على وجهه مسحةٌ من فزع.. تخالطها نظرة انتصار.. قهقهته لا تخفي فزعه..

أجابه فؤاد بينما يرمي أولى خطواته خارجًا:

- كررت هذه الجملة خمس مرات اليوم!

خرج من السيّارة.. رمق صاحبه الذي خطا باتجاه صندوقها يفتحه، أردف:

- لعلّك فزِع؟!

نفى الشرطي الأمر برأسه.. اكتفى بابتسامة تقاصرت شيئًا فشيئًا حتى اختفت؛ كان ذلك لمّا فتح صندوق السيّارة، وجثة الفتاة منكمشة داخله.

نظر باتجاه فؤاد الذي كان يرفع كفّه محيِّيًا الصياد على قاربه.. رمى الشرطي نظرة نحو البحر هدأت نفسه فيها.. بينما شيء من فزعه ظل يأرجح عينيه حتى اغرورقت دمعًا.. مسح دموعه بكفّه.. لاحظه الصياد فضحك عاليًا، وأشار لفؤاد بأن ينتظره حتى يرسي قاربه فيأتي إليهما.

كان منظر الأمواج المرتخية هادئًا.. الشمس هناك تقترب من محجرها.. ولون البحر أحمر في منتهاه، وكأن الدماء طغت على مياهه.. (هكذا فكّر فؤاد).

صديقه الشرطي يدرك جيدًا مدى الخطر المحدق بهم هم الثلاثة.. لكن فؤادًا بنظره ساكنٌ لا يبدو عليه روع أو هيبة أو خوف! لعل الأمر مرتبط بشيء في قرارة نفسه.. لعلّه لا يخشى ما يفعله ولا يُهيبه أن ما قاموا به جريمة لا تُغتفر.. أما الصياد الطاعن في السن؛ فلا شك أن الخرف أصاب عقله فلا يكاد يميّز بين الصواب والخطأ... شيء ما يجهله الشرطي، يجعل صديقيه هادئين كأنهما لم يقوما بأي شيء!

وصل الصياد إلى حيث يقفان، تعانق وفؤاد.. ثم حيى الشرطي حيث يقف.. ودخل سيارة 'الميرسدس' الرمادية، وترك الباب مفتوحًا، بينما اتكأ فؤاد على إطارها يحث الشرطي على الدخول.

دخل الثلاثة السيارة وغلَّقوا أبوابها.. الجو ساكن.. والشمس غابت عن الكون فيما تبقّت لمحة من ضياء يخسفها الوقت في هدوء..

أدار الشرطي المفتاح، وشغّل الراديو.. لم يكن يريد من صديقيه أن يَرَيَا مدى فزعه وخوفه.. والسكونُ الذي طغى على المكان يجعله فارغًا إلا منه.

مدّ فؤاد يده، وأخرس الراديو.. ضبط المرآة الأمامية حتى يبصر وجه الصّياد خلفه، ابتسم له:

- متى تقوم بالبقية؟

سأل فؤاد، حلّق الصياد بعينيه لبرهة يفكّر.. تبدو لحيته البيضاء الكثيفة لامعة تحت ضوء السيارة الداخلي.. التفت الشرطي نحوه، صار يريد خلاصًا فقط.. لم تعد سيارته محبوبة لديه.. كان يعشقها، والآن هو يشمئز منها إلى أبعد درجة..

طالت مدة صمت الصيّاد، كانت صُبابة صبر الشرطي في نفاذ.. قال بهدوء:

- أ لستما خائفين؟

نظرا نحوه، رمقهما بنظرة خاطفة، وأردف:

- أكاد أُجن!.. يُخيل إلي أنها نهايتي.. وأن الشرطة تتَّبعُني في كل خطوة أخطوها! لكنّكما سعيدان وكأنكما قمتما بفعل محمود!

ابتسم فؤاد وولى وجهه شطر النافذة يبصر خلفيتها، قال الصيّاد:

- لا زلتَ صغيرًا لتفهم! انتابني شعور كهذا في شبابي.. لكنّه اختفى الآن.

فتح الشرطي عينيه على اتساع مستغربًا:

- اختفى!؟

تنهّد الصّياد:

- أجل، اختفى.. وللأبد.. يمكنك القول إنني الآن أسعد.. أحس أن لحياتي معنى.. وأنني قمت بواجب ما يقدر عليه إلا ثلة تجاه البشر.

قرن الشرطي حاجبيه، كان فؤاد يصغي لهما بعناية، ووجهه نحو النافذة ما يزال.. قال دونما أن يتزحزح:

- فزعت.. أنا الآخر.. لذا اختبأت.. وكنت أخاف أن يمسكوا بي.. لكنني فكّرت: ألست من قرر هذا المصير لنفسه؟.. هذا قراري.. ولا ضير عندي من أن أُمسك أو أُقتل.. أخاف فقط ألا أتمم عملي قبل ذلك.. سيكون علي إيجاد صفية، وإقناعها بالعودة لي.. وسيكون علي اصطحابها لمكان بعيد نقضي فيه سويًا ما تبقى من عمرنا..

تنفّس الشرطي الصعداء.. خرج من السيارة وفتح بابها الخلفي.. اتجه نحو صندوق السيارة، راقبه بهدوء.. سائل أحمر يسيل من الحافة السفلى له.. نقاطه على الأرض داكنٌ لونها.. أخرج منديلًا من

جيب سرواله، فتح الصندوق، بينما يراقبه الصياد مبتسمًا.. وفؤاد هناك جثة على الكرسيِّ يفكّر في صفية..

رمى الشرطي نظرة على الصياد، قال:

- خلّصنا من هذا للأبد!

مُذكِّراتُ قاتِل

"في ذِهنك؛ يُمكنك فعل أي شيءٍ ممنوعٍ أو محرّم!"

"لديّ رغبة جامحة في كتابة ما أتذكّره حتى لا أنساه!

في ذهني ذكريات كثيرة.. أحتاج صَفّها، لأخلفها مكوّمة أقرأُها كلّما تعبَت أوصال ذهني وجفّت ذاكرتي عن معظم الأحداث.

سأبدأ من حيث يبدأ الجميع؛ سأعرّف نفسي كي لا أنساني أنا الآخر!

اسمي فؤاد.. اجترت عقدي الرابع بست سنوات، أنحدر بهدوء إلى جانب الحياة الآخر.. لم أتم دراستي الأَكادمية، لكنني أحببت القراءة في جزء من حياتي.. كنت ألتهم الكتب التهامًا..

وُلِدت في قرية بعيدة بمدينة تازناخت.. أتذكّر معالمها.. تلوح لي صورةً في الأفق، الدور الطينية، وأشجار اللوز وبعض الرياحين التي تطل بين الشجيرات.. نشأتُ في كنف أسرة عادية، والدي مصطفى، ووالدتي فاطمة.. لي ثلاثة إخوة.. أشكّ في أسمائهم.

كنت طفلًا عاديًّا في سنوات من عمري.. لكنني احتجت إيقاظ الوحش بداخلي لأكُون ما أنا عليه الآن.

منعني والدي من الدراسة، لم أكن طالبًا مجدًّا على أي حال.. لكنّ فكرة التوقف القسريّ عما اعتدتُ عليه، كانت مشكلتي...

بدأت حينها أكره والدي.. لزمني بمرافقته للحقول.. كان يتجاذب أطراف الحديث مع الرجال، ويلهو فيما أحرث أنا الأرض أو أوضِّب تُربتها، أو أسقي شجيراتها.. ومرّات أرعى أغنامه القاصية.. كنت أراقبه في حنق، وأقوم بأوامره على مضضٍ.

لم تفعل والدتي شيئًا لأجلي.. ولأنني الأكبر؛ حُمّلْتُ وزر إخوتي الذكور.. كنت أعمل بكد.. ولا أجد حنانًا من الأم، أو محبة من الإخوة، أو عطفًا ورحمةً من الأب.

مرت الأيام.. ونبغت في ذهنِ والدي فكرة أخرى..

الحقول لم تكن مجدية، وما صارت نافعة.. لم تُدِرَّ عليه مالًا كافيًا، ولأنني الأكبر؛ أرسلني للمدينة لأتعلّم الجزارة من عمي هناك.

كنت في الثامنة، آتاني الله طولًا يعتقد الناظر إلي أنني ابن العاشرة أو أكثر بقليل..

كنت أكره محلّ عمي القذر، ولا أطيقه بتاتًا لكنني صبرت لئلّا ينال مني والدي بعصاه.

دمت على ذلك لأيام.. وفي ليلة، ظللت بالمحل دون علم العم، افترشت الأرض وسطه لأنام.. فجأة دخل عمي الحسين، ومعه دلوٌ كبير.. عليه آثار دماء.

الدماء لم تكن مفزعة، العم جزّار، وكله ملوث بالدماء، من رأسه إلى أخمص قدميه.. لكنني لاحظت شعيرات قصيرة شقراء تبرز من فوّهة الدلو.

لاحظني عمّي فابتسم، وأخبرني أن ألزم مكاني ولا أتّبعه.. دخل الغرفة الأخرى حيث يجزر اللحم.. وكنت أنا ممددًا على الأرض، أمام بابها، كانت ستارة بيضاء متدلية، تحجب النظر.. ولأن 'الممنوع مرغوب' فقد أردت رؤية ما يفعله عمي في وقت متأخّر بشيء له شعر أصفر قصير..

سمعت أصواتًا.. لعظام تكسر، ولحم يمزّق، وضحكة غريبة.. قمت من مكاني بهدوء وأزحت الستارة.. نظرت نحو العم، كان موليًا ظهره ناحية الطاولة التي يعمل عليها.. لاحظت على الأرض

جِلدًا به شعر.. ولمّا أزاح العم جسده.. لمحت رؤوسًا لقطط بعيون قائمة باتجاهي.. بللت ملابسي من فوري.. وأسرعت بالهرب.

يمكنني تذكّر تلك اللحظة بسهولة، ركضت ما شاء الله لي أن أركض.. قطعت الطريق على طولها، من المدينة حتى القرية.. بسروال مبلل، ودموع مسكوبة.. كُنت قد رأيت وجه عمي الآخر للمرة الأولى..

وصلت الدار في وقت الفجر، صادفت والدي يخرج من البيت للصلاة مكتسيًا جلبابه البني.. ناديت عليه، فالتفت نحوي حتى أبصرني.. وأتم مسيره غير مبالٍ بي!

لعلني ما كنت لأكون هكذا لو أنه سألني: ما خروجك الساعة؟

أخفيت أمر ملابسي عن والدتي.. كنت أبلل فراشي لليال طوال.. أرى عمي في حلمي يضحك بصوت عالٍ ويقطّع أوصال القطط التي تتأوه بصمت.. أسمع أصوات العظام وضحكات العم.. وأحس للحظة بسائل دافئ بين فخداي فأستيقظ فزِعًا.. وأذهب خفية لأغسل فراشي وملابسي..

كنت أعاقب صباحًا بلعنات والدتي، ففي نظرها لم أعد أنفع بشيء.. لا أرافق والدي إلى الحقول، ولا عمي إلى المجزرة.. تتوعدني: "سيأتي أبوك وسترى ما سيفعله بك!"

يأتي الوالد مساءً ويسمع الوشوشات من أمي وإخوتي.. يحمل العصا.. ويمسكني بقوة يجرني نحو غرفة الطعام.. وهناك، لا أخرُج إلا منهكًا وتعبًا من الضرب.

ليلًا أبلل ملابسي.. وفجرًا أخفي ما حدث.. وصباحًا تعذبني أمي بكلامها.. ومساءً تنال مني العصا.

كان عذابًا لأسابيع..

وفي يوم.. استيقظت متأخرًا.. كان الفراش مبللًا.. قمت واغتسلت كالعادة، وأخذت ملابسي لأغسلها أمام الدار، ولم أحسّ إلا وضربة موجعة قسمت ظهري وأخرى برأسي.. حتى سقطت مغشيًّا عليّ.

والدتي علمت بالأمر وعاقبتني.. وصرت أعاني من ألم حاد برأسي بعد تلك العقوبة.. ولم تتوقف عادتي أبدًا..

كرهت والدتي يومها.. وإخوتي الذين وشوا بي..

كنت وحيدًا بينهم.. لا أجالسهم ولا أحادثهم.. دمت كذلك لفترة طويلة..

ومرةً تغيّر كل شيء وزاح الخوف عني... كنت أسير في شعاب القرية، وإذ بي أبصر العم الحسين جالسًا على عتبة دار يطعم قطة.. لمحني، فنادى علي وذهبت إليه حذرًا.. ابتسم لي.. ثمّ قال:

- أ ترى هذه القطة؟

نظرت نحوها؛ كانت منهمكة بالأكل.. لا ترفع رأسها أبدًا.. وكان العم يرمي لها بفتات لحمٍ كلّما شارفت على إنهاء ما بالأرض..

- أشْفِقُ عليها!

قال؛ نظرت نحوه، كان يحملق نحو القطة وقد تغيّرت ملامح وجهه، وبدت عليه نظرة غريبة.. نظر إلي، بالنظرة نفسها، ورسم على وجهه ابتسامة مائلة وقال:

- لهذا أخلّصها من حياتها السخيفة المملة.

كنت أفهم قصده رويدًا رويدًا.. وكنت أخشى أن أجرّب لعبته تلك وأخلِّص بضع أرواح من هذه الحياة الكئيبة.

ومرةً؛ كنت أسير وأنا ابن العاشرة بين الحقول.. لمحت قطة سوداء، كان إخوتي يطعمونها.. ووالدتي مع الجارات تجلس غير بعيد عنهم، وتنهاهم عن إطعامها، وهم يبتسمون بفرح لرؤيتها تأكل..
ويمسحون على فروها حبًا وحنانًا.. رأيتني للحظة أتخيّل لو لم يكن أحد هناك.. ماذا كنت لأفعل بها وهي لا تقوى على تحريك قائمتيها الأماميتين؟..

كنت لأخلصها من حياتها المؤلمة، لن ينفعها الطعام في مثل تلك الحالة أبدًا!

ولأن إخوتي 'أشفقوا' عليها بطريقتهم، أخذوها يومًا إلى البيت، وكنت أراقبهم من حيث لا يدرون أنني أفعل. فسمعت أحدهم يقول: إنهم سيخفونها في غرفة الطعام وسط واحد من الصناديق الخشبية التي اعتاد والدي من قبل جمعَ غلة أرضه فيها.

ولمّا أظلم الكون.. ونام من في الدار كلهم جميعًا.. قمتُ حذرًا، ودخلت غرفة الطعام.. وجدتها وسط صندوق خشبي صغير.. مستلقية بطريقة غريبة أمام فتات الخبز وصحن الماء.. حملتها بين ذراعيّ ولمست فروها.. كانت تصدر صوتًا غريبًا.. أحسست بألمها الحاد الذي يعتري عينيها.. 'أشفقت' عليها بطريقتي الخاصة فقمت بها خارجًا..

وضعتها أمام عتبة الباب وهي تراقبني بعينين واسعتين، مشيت قليلًا حتى وجدتُ حجرًا كبيرًا، يكبر القطة الصغيرة نوعا ما.. وقفت أمامها.. وعيناها تراقب عيني، رفعت الحجر عاليًا، وضربت رأسها بقوة.

لم تصدر صوتًا سوى في المرة الأولى.. كان مواؤها متألِّمًا.. بعدها، وفي الضربات الأخرى التي نالتها.. خرس الصوت واختفى.. ولم أعد أسمع إلا أصوات العظام المتكسرة.

عدت إلى فراشي.. ولم أكن من يومها أبلّه... وكانت هي الروح الأولى التي أنهيت تعاستها وألمها.

وكنت أحسن مواراة ما أقوم به.. فأخذت القطة، وحفرت لها حفرة في الحقول، ودفنتها هناك.. ترحّمت على جثمانها لوقت طويل..

كانت تلك البداية.. وكنت كلما وجدت مخلوقًا يائسًا من الحياة أنهيها رحمة به.. ومرت سنون طويلة، وصرت ذا ثمانية عشر عامًا.

وفكّرت والدتي بإرسالي للخال بمدينة البيضاء، كان ذلك لمّا علمت منه أنه يحتاج فتى يساعده في أعباء البقالة، وما وجد خيرًا من ابن أخته (والذي هو أنا)، أرسل ذلك مع بعض الجيران اللذين كانوا يترددون على البيضاء مرة كل سنة.

ولمّا أن بلغ الخبر والدتي.. تحمّست وصارت تردده كل مرة.. فانزعج والدي، وأخبرها أن لا خير فيَّ ما دمت رفضت العمل مع العم سابقًا.. قال:

- الفتى لا يصلح لشيء! سيرحل ويأتيك نحسه من مكان ما.

وصدق؛ فبعدما عزفت والدتي على وتر والدي الحساس (المال) :

- فؤاد سيعمل ويرسل المال لنا هنا، ولن يحتاج أحد للعمل.

قَبِلَ منها مفترًّا.. وما هي إلا يومان حتى كنت جاهزًا لمغادرة تلك القرية إلى الأبد..

أتذكر ليلتها.. كنت أحمل حقيبة بيدي، وأخرى على ظهري.. وكنت حينها شابًّا قوي البنية، فما مرّ عليّ من أعباء بحقل والدي كان كفيلًا بتقويتي.. أخبرتني والدتي أنني لا أملك عقلًا؛ لكن أكتافي تفي بالغرض. ابتسمَتْ.. أعتقد أن تلك الجملة كانت آخر ما سمعته من شفتيها..

أما والدي.. فآخر عهد لي به، كان لمّا اشترى لي الحقيبتين، ووصاني بإعادة ثمنهما وإلا لن ينفق فلسًا واحدًا على يوم زفافي.. قال ساخرًا..

اعتقدا (والدي ووالدتي)، أن البيضاء ستفتح لهما بابًا للرزق والكسب والغنى.. فجعلاني جسرًا بينهما وبين ما يتمنونه.. وأرسلاني بعيدًا.. للأبد.

وما أرسلت لهما الحقيبتين ولا المال...

كيف كانت البيضاء لشاب قرويّ؟!

كانت المكان الذي استطاع فيه فعل أي شيء.. دون أن ينزل عليه أحد بالعصا أو يسمع لعنات جارحة، أو وشوشات صبية.

كانت فضاءً مثاليًا لكل شيء لي.

لم يكن الخال رجلًا طيبًا.. كان يبتسم لي إذ كنت نشيطًا في العمل.. يكلفني بالبقالة كلها اليوم بطوله، ولا يأتي إلا مساءً يسألني عما بعْتُه، ويأخذ المال.. ويترك لي شيئًا لأشتري ما آكله به، وينصرف.

كنت في البداية أبيت ببيته، لكن زوجته ملّت وجودي.. فصار يُلزمني بالمبيت في الدكان.

وفي مرة، لاحظت وجود قطط كثيرة بالحي، فالحي كان شعبيًا.. وبه جزارة وبقالات والكثير من الدكاكين الأخرى التي تتهافت عليها القطط لتحظى بفتات..

لم أكن أشفق عليها آنذاك.. لكنها كانت توتر أعصابي وتغضبني..

مللت رؤية الناس يطردونها كلما ترددت على أحدهم.. ثم ما تلبث أن تعود من جديد ليكون الطرد جزاءها المحتم.

وفي ظلمات الليل.. والشوارعُ ساكنة، كنت أخرج من الدكان، آخذ معي في كل مرة شيئًا تلتهمه القطط التهامًا.. وأسكبه على الأرض فتأتي... ودمت على ذلك أسابيعَ حتى ألفت فعلي وألفتني.

ذات مرة، وأنا على العهد؛ أخذت الطعام خارجًا.. كانت هي تنتظرني.. كانت ستَّ قطط مزعجة.

وفي كل أسبوع كنت أتخلّص من واحدة بحجر كبير.. وأرمي جثتها بحاوية أو مكان خالٍ (وما أكثرها هناك)، وأجعل شيئًا من لحمها سهل البلع فأطعمه القططَ.. وكانت تلتهمه بشراهة.

وخلّصت الحي في وقت وجيز من تلك الكائنات.. وصار الخال يمتدحني كثيرًا إذ فعلت!

لكنه لمّا رآني بأم عينيه أرمي جثة واحدة من القطط بحاوية أزبالٍ.. طردني من الدكان.

وخرجت منه دون أن أبرّر له فعلتي..

ولم يكن لي أصدقاء كثر.. إلا صديقان.. كانا مثلي.. لا أسرة لهما بالبيضاء كلها. فاكترينا غرفة وأقمنا بها نحن الثلاثة على أن كل واحد منا يدبّر معاشه بنفسه..

كنت أنا حينها ابن الواحد والعشرين، وكان لي صدِيقَان متفاوتا الأعمار، فكان أحدهما يكبرني بأربع عشرة سنة، والآخر يصغرني بأربع، وكنا نمتهن ثلاثتنا مسح الأحذية.. غير أن الفتى الأصغر كان يطمح لإنهاء الباكالوريا.. كان مجدًّا.. فما لبث أن حازها بميزة جيدة، ودخل متدربًا ليصبح شرطيًّا..

أما الآخر، الأكبر.. فكان مستهترًا.. وأذكر أنه لم يملك الكثير طوال حياته.. لكن كان له الحظ إذ توسّط له بعض المعارف واكترى قاربًا لصيد السمك.. والآن هو يملكه ملكًا خاصًا..

أمّا أنا، فلم يكن لي ولهٌ بالدراسة، ولا معارف، كصاحبيّ.. ولهذا ظللت أمسح أحذية الرجال بالمقاهي لوقت طويل.

ولم أكن لأفكر في البحث عن مهنة أخرى أمتهنها.. لكن شاءت الأقدار أن ألتقي بصفية يومًا أمام الفندق.. وكنت ذا ثلاثين سنة، ودأبت قصد الفنادق مرة كل حين لأجد زبائن لي هناك.. فلمّا التقيتها شغفت بحبها.. وأطلعتها على أمري.. ومكنونات صدري.. فرفضتني لأنني ماسح أحذية، وهي المومس التي تملك مالًا وأملاكًا.. ولا أدري كيف توسطت لي لأصير سائق سيارة أجرة.. فكنت آخذها كل يوم تقريبًا إلى الفندق.. وهكذا إلى أن تزوجنا بعد أربع سنوات من لقائنا الأول.

لا أجزم أنها تحبّني.. لكنني واثق من حبي لها.. فإذ أنا أحبها تجاوزت الخط الأحمر الذي رسمته لنفسي كيلا أجتازه ما حييت.

وبفضلها الآن تجاوزته أميالًا.. وما عاد شيء يرعبني أو يفزعني إلا الخوف من فقدانها للأبد..

بعض الذكريات تتراقص بمخيلتي.. أحسبها هفوات مني فحسب.

لم أكن يومًا أتخيل أن نفترق.. كنا رائعين معًا.. وكنت أنا أهيم في حبها كل مرة.

وتركت هي ما كانت عليه، وصارت وفية لي وحدي..

لم نرزق بأطفال.. وقطعًا لم أفكّر بهم طوال علاقتنا التي دامت أكثر من ثمان سنوات.. كنت أحبها فقط.. وأعشق كل شيء يذكّرني بها.

ولمّا أن التقيتها لأول مرة- وقد كنت أنهي حياة المخلوقات من حولي.. تلك التي تغضبني.. وتلك التي تترك في نفسي شيئًا من الشفقة- ما عدت أقوى على مسِّ مخلوق بأذى.. حتى لو كان لمصلحته.

لكن بداخلي، كرهت كل شيء.. كرهت الأطفال والقطط والمخلوقات الضعيفة.. وكرهت عالم صفية الذي أتت منه."

الدار البـــيـضـــاء،

20 أكـتـوبـر 2017.

صَفِيّة

"قد يحمل القلب أحقادًا دفينةً تتخفّى..

لكنها حتمًا تكشِف عن ستارِها في الوقت المناسب"

صفية فتاة قروية من 'تطوان'، وقد عُرِف على فتيات تطوان جمالهن الخلاّب، وكانت هي كغيرها من فتيات القرية تطمح للزواج بفارس الأحلام الذي يُخرجها من شقاء البادية وكدّها.

لم تكن تمتاز بأي شيء، سوى بالحياكة التي تعلّمتها من والدتها، كان لها أخوان يصغرانها، وكانت الفتاة الوحيدة بينهم.

لذا فقد كان همّ والدها وشغله الشاغل؛ متى يزوّجها ويريح نفسه من التفكير بمستقبلها المجهول.

وفي قريتهم؛ كان الآباء يفتخرون إذا ما زوّجوا ابنتهم (التي تكون في الغالب قاصرًا)، برجل ذي مالٍ وإن كان يكبرها بعشرات السنين.. المهم هو عشُّ الزوجية، والأموال التي يغدقها 'النسيب' الغني على والدَي العروس القاصر.. فيما سعادتها تُضرب عرْض الحائط.

ولأنهن كن جميلات، فلم يكن لمن يطرق بابهن للزواج إلا تلك النظرة: إذ يرى الواحد منهم الفتاة بحسنها وجمالها، ولا يكلّف نفسه بشيء آخر.

وكان العيب وقتها: أن تتجاوز الفتاة الثمانية عشرة ولم يطرق بابها أحد.. آنذاك تُهمَل لوقت طويل.. وتعيش على أقوال الجيران، وحكايات الوالدين.. و'أقرانها المتزوجين'.

صفية.. مثلهن.. شغَلها الزواج عن كل شيء.. حرصت والدتها على تعليمها كل ما تعلّمته هي الأخرى؛ من شغل البيت والحياكة، و"التاويل والصواب"، وصارت هي تنتظر فارس الأحلام على حصانه الأبيض.

البنات المسكينات كُن يعِشن أوهامًا.. يسمعن عن فتاة تزوجت، فيصيبهن الإحباط والاكتئاب.. ويعتقدن أن كلّ السعادة هناك.. حيث الزوج الثري.

معظمهن رحّلها زوجها إلى خارج البلاد، ومن بقيت هناك تنتظر أوانَها هي الأخرى للرحيل.

ولأن القرية اشتهرت ببناتها القاصرات الجذَّابات اللآتي يحلم آباؤهن بتزويجهن، عُرِف هناك رجال يتوسّطون بين العريس والعروس المجبورة على الزواج. ومنهم: "السي بوشعيب"، الرجل الداهية الذي يحسن جلب العريس المناسب للعروس المناسبة؛ إذ تناقل عنه أهل القرية معرفته الشديدة بالمغاربة المهاجرين في الدول الأوربية، وقد كان دائمَ التردد على القرية غرضَ البحث عن عروس لكل شاب ينبئه برغبته في الزواج.

وحدث لصفية الأمر نفسه؛ ففي يوم من أيام الله، أتى السي بوشعيب للقرية، وصادف أن رآها في إحدى شعابها مع بعض رفيقاتها يتذاكرن، فسمع جلَّ حديثهن، وأدرك أن الفتاة صفية ساذجة لبراءتها.. فلمّا افترق جمعهن، تحيّل الفرصة وسار على أثرها حتى علم مسكنها أين هو..

وفي صباح اليوم التالي، جاء السي بوشعيب إلى القرية، واستقبلته أسرة صفية أحرَّ استقبال، فهو المعروف بوساطته بالزواج، وما أشد لهفة كل أسرة عليه.

افتتح السي بوشعيب مع والد صفية الموضوع؛ أخبره أن شابًّا سعُوديًا، يبحث عن عروس مليحة ظريفة لا تتجاوز الثامنة عشرة، وقد صادف أن رآى ابنته في بعض الأزقة فنالت إعجابه لموافقتها أوصاف الشاب السعودي.

تهللت أسارير الأب فرحًا واغتباطًا.. ولم يسأل عن اسم ذاك الشاب حتى.

ومرت أيام وجاء الخاطب الشاب ذو السادسة والثلاثين سنة، وأُعجِب بصفية، وقرّر الزواج بها.

صفية كانت فتاة في السادسة عشرة وقتذاك، ولم يسمح لها والداها بإبداء رأيها، يكفي أن الشاب شابٌ له مال وسعودي! فهالة 'السعودي' تلك غالبًا ما تعطي مفعولها في نفس كل سامع.

انتشر الخبر كالنار في الهشيم.. وفي لحظات؛ أصبحت صفية واحدة من اللآتي تغبطهن باقي الفتيات لـ'سعادتهن بفارس الأحلام'.. واللآتي لا يملكن من أمرهن شيئًا.

كان يُسعد صفية أن يسعَد والداها.. يكفيها فرحهما.. فقد كان 'الخاطب' يغدق عليهما الأموال إغداقًا.. فيلقي برزم مال بين يدي الأب المسكين كلّما أطل عليهم بقدّه السمين، ولباس بلده التقليدي..

ومرت أسابيع، وأرسل الشابُ السعوديُّ السي بوشعيب ليحضر الأسرة كاملة إلى مسكنه؛ فهناك: سيعقد قرانهما، وهناك: ستعيش صفية كالملكة في عالم الأحلام المثالي.

كان السفر شاقًّا وطويلًا.. وكانت مدينة البيضاء الوجهة المحددة.

الإحساس الذي كان يخالج صفية كان إحساسًا تحسه أي فتاة، هي طفلة؛ عمّا قريب ستكلَّف بكل أعباء البيت وسيصير لها زوج يكبرها بعشرين سنة. لكَم فرحَت واختلطت المشاعر في قلبها.

البيضاء كانت عظيمة، لأسرة قروية ما غادرت قريتها إلا لسوق المدينة.. يبدو المكان مثيرًا.. وفي كل مرة يمتدح الأب والأم الحياة هناك، تبتسم الطفلة صفية.

وصَلوا محل سكن السعودي، كان بيتًا فخمًا يعجز اللسان عن وصفه، به حديقة واسعة اصطفت بها أشجار منوعة، وللمسكن حارسٌ يفتح الباب ويغلقه، النظرة الأولى نحو المسكن أبهرت الجميع.

قال السي بوشعيب:

- رأيت يا صفية كم أنت محظوظة!؟

ابتسمت هي خجلًا..

دخلوا الدار الكبيرة، واستقبلهم فارس الأحلام محيِّيًا.. بدا سعيدًا، أخبرهم أنه جهز كل شيء للعرس الفخم وما يلزمهم إلا الراحة والسياحة.

الرجل كان يتحدث بلهجة بلاده، بصوت جهوري، ونظرة حادّة.. وقعت المسكينة في حبه يومها.

مكثت الأسرة أسبوعًا هناك، في كل يوم يأخذ العريس عروسَه لشراء لوازمها هي ووالدتها.

ثم أُقيم حفل العرس البهيج الذي حضره السي بوشعيب، وامرأة في مثل سنّه ترافقه.

وهكذا، تزوّج الاثنان، ودخل الزوج بزوجته، وعاشا سويًا بسعادة لشهر كاملٍ.

وفي يوم، أخبر الزوج زوجته بضرورة سفره لغرض ضروريّ لبلاده هناك، وبعد أن يجهّز الأوراق اللازمة سيصطحبها معه. ترك لها قدرًا كبيرًا من المال، وانصرف.

وصارت الفيلا مرتَعًا لها ولأسرتها، يقوم الخدم على شؤونهم، وما لهم سوى الراحة.

وبعد أسبوع، غادر الخدم دون سابق إنذار، وما تبقى أحد هناك.. وصاروا هم يقومون بأعباء البيت الكبير... ومرّ الأسبوعان على رحيل الزوج.. وطرق رجل غريب باب الفيلا، قال: إن الفيلا له، وقد اكتراها منه سعودي لأجلٍ، وهذا يومُه.. فعليهم مغادرتها.

الزوج ما ترك لزوجته رقمًا لتتصل به، ولا عنوانًا.. والأدهى أن ما معها وثيقة تثبت زواجها به! ترك لها مبلغًا من المال لتعود أدراجها إلى ديارها مع أسرتها الصغيرة..

أدرك الوالدان أنهما وقعا ضحية احتيالٍ.. وأن ابنتهم الآن ضاع شرفها وضاع مستقبلها الذي كانا يتعجّلانه هباءً..

وعاد الجميع خائبًا إلى القرية، واختفى السي بوشعيب من يوم الزفاف.

القرية الآن بنظر صفية، كئيبة مُكدّرة.. ما عادت الشعاب نفسها، رفيقاتها صرن يتجنبنها، يخفن أن يُصبن بنحسها كما تقول والدتها..

لم يكن والداها قد سألاها عن حالها بعد الذي مرّت به، فهي صاحبة الشأن.. كانا منهمكين بالتقتير بتلك الملايين التي أغدقها السعوديّ عليهما مقابل شرف ابنتهما...

صفية؛ ما عادت صفية نفسها.. أحست أن الرجل يلزم معاقبته.. وهي ما ظنت أبدًا أن تقع ضحية غدر واحتيال من قبل السي بوشعيب المشهور الذي لم تلتمس له أثرًا مذ عادت إلى القرية..

فكّرت صفية لأيام: ما عاد لها شيء تخسره، الحياة أمامها مغلقة أبوابها.. فقدت الزوج والشرف.. فعليها بالثأر.. تدريجيًا تراكمت الفكرة برأسها..

سنة 1998 وفي ليلة مقمرة، هجع فيها أفراد أسرتها كلهم، سارت إلى غرفة والديها وأخذت ما تبقى من المال الذي أعطاه السعودي لهم، ارتدت ملابسها، وأخذت شيئًا منها بحقيبة ظهرٍ، وغادرت القرية.. وهي الأخرى؛ غادرتها للأبد.

كانت وجهتها محددة سلفًا، البيضاء، حيث عاشت شهرًا من الرفاهية كلّفها العمر كله.

استمرت الرحلة يومًا كاملًا، وما عادت تذكر هي المكان الذي كانت الفيلا قائمة به.

لم تكن تدري أين تضع رحالها، لكن المال الذي كان بحوزتها كفاها شرَّ الجوع والعطش.. بحثت عن مركز شرطة أنّا كان، وكان الليل وقتها قد انتصف، فكان به شرطيّ واحد يقتعد كرسيًّا أمام مكتبه، دخلت المركز، وجلست قبالته وبدأت بسرد الحادثة التي وقعت لها.. كانت جميلة، وسذاجتها تبدو جلية لأي شخص.

اعتذر منها الشرطي، أخبرها أن البيضاء كبيرة ومليئة بالسعوديين والدور التي يكتريها الناس غرض الدعارة، وعرض عليها أن تبقى ببيته ريثما تجد مكانًا يؤويها.. ووافقت صفية.

لم تكن لتدرك أن شرَكًا آخر كان ينسج شباكه بتفانٍ وإتقانٍ.. كانت هي مذعنة بهدوء، وسذاجتها تقودها للهاوية.

مكثت ببيت الشرطي ثلاثة أيام بالتمام، يترك لها التّصرّف في الدار كلها صباحًا ومساءً، وهي صارت تقوم بأشغال البيت له، ويأتي ليجد البيت مرتّبًا ونظيفًا..

أحبّ ذلك منها، وعرض عليها الزواج، وافقت هي.. وتزوّجا سرًّا..

ومرة أخرى؛ لم تكن لدى الفتاة وثيقة تثبت زواجها من الشرطي.. وكانت بنفسها قد وقعت ضحية سفهها من جديد.

ولمّا قضى منها الوطر ألقاها خارجًا، وهددها بفضحها إن هي ترددت على منزله أو مخفره من جديد..

فصارت إلى الشوارع تتقاذفها الأزقة، ولمّا انقضت صُبابة المال الباقية التي كانت معها.. جعلت من جسدها بابًا لكسب الرزق.

فكرت مرات كثيرة بالعودة إلى ديارها.. لكنها تدرك تمامًا أن والدها لن يقبل بها أبدًا، كانت نظرته نحوها مشمئزة بعد ما حصل مع السعودي، كيف لها أن تعود الآن؟

استمرت على ذلك لأيام طوال.. فكانت تهجع ببيوت الزبائن، وصباحًا تسير لتبحث عمّا تشبع به جوعها، وتصطف مع باقي المومسات المبتدئات على رصيف الشارع المعروف بهن.

تمر السيّارات، يكتفين بالنظر والانتظار.. وكان لصفية زبائن كُثُر لجمالها، وصغرها، وسذاجتها.

ومرةً وهي على دأبها، مرّت سيّارة صغيرة، وقفت قبالتها، كان بها رجلٌ وامرأة.. ولتوّها أدركت أن المرأة التي ترافقه قد رأتها سابقًا..

أشار إليها الرجل بالدخول، دخلت السيارة، وانطلق هو مغادرًا.. ابتدر بالحديث، حيث شكر جمالها وهيأتها، وأخبرها أنه والمرأة يمهّدان لها فرصة للربح الكثير:

- ستكونين غنية!

قال، بينما ضحكت المرأة ونصحته بالصمت، قالت هي:

- أ لا تذكرينني ؟

فكّرت صفية للحظة، أجابت:

- ليس تمامًا..

ابتسمت المرأة، فيما أوقف السائق السيّارة جانبًا.. قالت:

- حضرت لزفافك مع السي بوشعيب.. يوم تزوّجتِ السعودي فهد.

سكتت صفية، وقد كانت مشاعرها مختلطة.. بينما تجمّعت الدموع بعينيها.. أردفت المرأة:

- يمكنك مناداتي بـحـليـمـة الشمالية..

قالت مبتسمة.. والرجل بجانبها يقهقه..

في أيام معدودات أخرى، تحسّنت أحوال صفية.. وشيئًا فشيئًا صارت مومسًا متمرسة، وكلّفتها حليمة بالوصاية على فتيات قاصرات شماليات، لمّا بلغت العشرين من عمرها.. ولم تعد سذاجتها تلك عائقًا.

حليمة الشمالية تلك؛ كانت سندًا لها، فقد سبق وحضرت زفافها مع السعودي الذي ما أتت للبيضاء إلا قصد الانتقام منه. لم تسألها عن أي شيء.. لم تكن هي بدورها مستعدة للبوح بأي شيء.. أخبرتها حليمة مرةً أنها علمت بأن القدر سيجمعها من جديد..

أما السعودي؛ فلم تجد له صفية أي أثر.. طوال السنوات الثلاث التي أتت للبحث عنه.. لم تيأس بعد.. يغمرها أمل يومًا بعد يوم.. وقد ظنّت أن حليمة الشمالية يومًا ستنبؤها بخبرٍ عن السي بوشعيب المحتال.

وذات يوم، وصفية أمام الفندق، تنتظر سيارة تقلّها.. تقدّم نحوها شاب حسبته في عقده الثالث.. كانت ملابسه مرتّبة رغم أنه يحمل بيده متاعَ ماسح أحذية.. وقف قبالتها ونظرة هائمة تعلو محيّاه.. لم تلقِ بالًا له، أشاحت بوجهها عنه، وهو يراقبها ما يزال..

قال إنه معجب بها.. وقد استمر بمراقبتها لأسابيع طوال.. سخرت منه.. ونصحته بالابتعاد عنها..

لم يستسلم هو، وضع متاعه أرضًا، ومدّ يده، قال:

- أُدعى فؤاد.. ما هو اسمك؟

يبدو واثقًا من نفسه، ابتسمت بينما نظرت نحو الجهة المقابلة من الشارع؛ حيث سيارة تومض أضواؤها، وامرأة تشير نحوها خلف النافذة.. قالت:

- اسمي حنان، تشرّفتُ بك.. إن كنت تريد موعدًا معي فاذهب إلى تلك المرأة هناك (وأشارت بيدها نحو السيارة بالجهة المقابلة) فهي المسؤولة عني..

حمل الشاب متاعه، وعيناه في ذهول.. قال بينما ابتعد بضع خطوات نحو الخلف:

- وأنت كذلك مومس!؟

بقايا نفحة: هِيدرانْجيا حَمراء

"سيجعلُك الحُب تعيسًا لمّا تعشعِش تفاصيلُه بأوهامك!"

صيف 2002 كان فؤاد ماسح أحذية، يطمح للبوح بمشاعره للفتاة التي لفتت أنظاره أمام الفندق.. ظنّها في البداية واحدة من النزيلات به، لكنه كان مخطئًا..

كان كلّما مر من أمامِه وأبصرها بعد يوم متعب؛ ترتاح نفسه، وكل تعبه يزول.. تتيه نظراته في ملامح وجهها الطفولي.. تبدو رائعة كقمرٍ مكْتَملٍ بين ذرات نجمٍ ضئيلة..

تشجّع يومًا، وتقدّم نحوها.. كان قد رتّب هندامه بمساعدة صديقه الشرطيّ.. بدا أنيقًا..

كانت تقف غير بعيد عن باب الفندق، لعلّها تنتظر أحدهم.. وبيدها باقة ورد بيضاء.. وقف قبالتها بصمت.. وبدأت هي تفرد تفاصيل وجهه بدقة.. ابتسم، أخبرها مباشرة أنه معجب بها.. لكنّها ضحكت بغرابة.. عرّف بنفسه، ولم تُلق له بالًا.. كانت تراقب الجهة المقابلة من الشارع بتنبّه..

أدار بصره إلى حيث ترى.. ولاحظ امرأة في عقدها الرابع تشير ناحية الفتاة بجانبه.. نطقت هي؛ وأخبرته باسمها: حنان.. ابتسم خجلًا..

أضافت:

- إن كنت تريد موعدًا معي؛ فاذهب إلى تلك المرأة هناك فهي المسؤولة عني..

راقبها بصمت.. أدرك أخيرًا أنها واحدة من المومسات اللآتي يمتهنّ.. حمل صندوقه، وألقى عليها نظرة حسبها الأخيرة.. قال:

- وأنت كذلك مومس؟

وسار بعيدًا مهرولًا.. أمّا هي؛ فقد ظلّت متصلبة بمكانها في استغراب..

لم يكن فؤاد لينساها.. اعتقد مصرًّا أنه معجب بها.. كان صديقاه يسلّيان عنه شدة الصَّبابة والوجد بأغاني العرس الشعبية.. لكنّه كان يفكّر: "أ لا بأس لو كانت مومسًا؟"

تذكّر باقة الورد التي كانت تحملها.. رمق صاحبه بنظرة جادة:

- لا بأس.. لن آبه بماضيها إن كانت تريدني.. سأتقدّم لها غدًا، لكنني أحتاج أن أهديها باقة ورد كتلك التي كانت معها اليوم...

سأله الشرطي، بينما صديقه الصياد يراقب بذهول.. هو الآخر يمقت المومسات، وقد استغرب من صديقه فعله ذاك:

- تريد أن تبدو رومنسيًا!

قال، بينما قهقه الصيّاد على مضض، وفؤاد لا يرد؛ كان يحاول حلّ كل شيء ليكون الغد مثاليًا له، ولها.. أردف الشرطي:

- وما شأن تلك الباقة؟ كل الزهور تفي بالغرض.

طأطأ فؤاد رأسه، قال بينما شردت عيناه:

- بدت الباقة بتلك الزهرات الممتلئة متناسقة مع وجهها الطفولي..

ابتسم الشرطي.. وكذلك الصيّاد.

في اليوم التالي، ذهبا معًا (الشرطي وفؤاد) لمحل الزهور.. وجد زهورًا مشابهة.. سأل صاحب المحل عن معناها.. قال بينما ينسّق باقة الهيدرانجيا البيضاء:

- اسمها: الهيدرانج.. تعني القلب المخلص الوفي.. ولا تعيش سوى اثنا عشر يومًا.

***

رمق الشارع بنظرة خاطفة.. بدا له الكون كومة فوضى ممقوتة.. تحمَّل الضجيج.. وترك النافذة مفتوحة.. بينما رمى نظرة سريعة على المزهرية المرفضة أشلاؤها أرضًا.. حمل بعض قطع بحذر.. كان يبتسم وبعينيه دمعة متأرجحة..

راقب الذكريات بتلك القطع.. راقب باقات الهيدرانجيا التي ملأت غرفته مؤخرًا.. جمع قطع المزهرية.. ووضعها على مكتبه..

تبدو الزهور بنظره ورقةً بيضاء، تحتاج رمزًا وسرًا لا يعرفه سواه.. تحتاج بصمةً منه ليعلم يقينًا أنه الوحيد الذي يمتلك شيئًا كذاك.. حلّق بناظريه في فضاء الغرفة.. تبدو مرتبة مؤخرًا.. ومعطرة بكل تلك الباقات..

عطر الزهرات الذي كان أريجًا يستنشقه فؤاد كلما استيقظ.. كان خانقًا ومَقيتًا.. رائحة الدماء، والزهور.. تبدو غير متجانسة.. لكنه يحسُّها رائحةً أثيرة عتيقة.. تنعش ما ركد بفؤاده منذ الأزل.. يعتني هو بكل الزهور.. وخاصة الحمراء منها.

اتكأ على كرسيّه قبالة مكتبه، راقب أجزاء المزهرية.. تذكّر شهرًا مضى.. كيف كان يراقبها أرضًا مُذ سنوات ولا يقوى على إزاحتها.. صار الآن يستطيع رميها بحاوية أو من على النافذة لتسقط بعالم غير عالمه، فينساها للأبد..

لعلّه في قرارة نفسه، أمل نسيان صفية.. يوقن هو بأنها لم تحبه يومًا.. كانت تبحث عن شخص يحميها لتتزوجه وتنسى الماضي الكئيب.. وهو عرض عليها حُبّه بلا شروط.. وجهل معظم تفاصيل حياتها.. وإن استمرت علاقتهما لثمان سنوات متواصلة.

حدثته يومًا، هو يذكر، سألته:

- ماذا سيحصل لك إن تركتك؟

لعله ابتسم وقتها.. يداري بتلك البسمة جرجًا عميقًا ينزف.. خشي، إن غادرت عالمه، أن يضحى وحيدًا تعيسًا ما يستطيع رد شيء من أمره، ولا مجاراة واقِعِه.. ولا أن يعود فؤادًا؛ ذاك الذي لم يكن يعرفها..

أمضى الكثير من الوقت في محاولة يائسة منه لينساها، لكنه ما استطاع.. تغيرت حياته وأحواله.. وصار الآن وحيدًا بتلك الغرفة يتشرب آلامه لوحده، ويكفكف دموعه بصمت..

جراحه لم يجد لها بلسمًا.. ما كان يومًا يرغب بارتكاب ذنب عظيم.. أو جُرمٍ يخاف من عاقبته.. هو الآن؛ وبعد أن أنهى كل ما كان قد قرّره، صار وحيدًا.. حتى أنه افترق وصديقاه كي لا يصل إليهم أحد..

يعلم جليًا كيف يكون حال كل منهما.. صديقه الصيّاد أخبره في آخر لقاء لهما... أنه سيتخذ زوجة بعد كل هذا الوقت.. يحتاج امرأة أمينة وفية.. حتى بعدما ألقى بالكثير منهن بالبحر ترطُمهن لجة الماء، وتلقي بهن الأمواج في القاع للأبد..

يفهم فؤاد وجهة نظره.. فقد عاش لأكثر من أربعين سنة بلا أسرة أو مؤنس.. لا بد له من زوجة ينفث آخر نفس بين أحضانها وعلى مرآى منها.. على الأقل ليجد من يحزَن لفراقه..

وصديقه الشرطي؛ لا شك أنه يسلي عن نفسه بمرافقة زوجه وأبنائه الثلاثة لينسى الأمر.. رغم أن هالة من السواد تظهر جلية بين عينيه إذا ما تذكر الإثنتي عشرة مومسًا..

فؤاد نفسه خائف.. خائف من أن يضطر للموت وحيدًا دون أن يرى صفية مدى الحياة.. يتذكر اليوم الأخير الذي رآها فيه.. تشاجرا من أجل شيء تافهٍ لا يتذكّره أبدًا.. ولا يمكنه الآن البحث عنها أبدًا..

وحين غضِبت؛ ألقت المزهرية أرضًا.. ودهست كل تلك الزهرات التي أحضرها لها كعادته، مرة كل أسبوع.. دهستها بلا رحمة أو شفقة.. ولا حب ضئيل تجاهه.. وهو ما يذكر بعدها أي شيء..

كـوّم كل تلك القطع الفخارية، وألقى بها من النافذة بقوة..

***

سابقًا.. بيوم تقرر في نفس فؤاد البحث عن صفية، قصد الفندق، وهناك التقى بحليمة الشمالية، وقد رافقته لسيارته ليتسقّط منها خبر زوجته، جلس هو بمقعده الأمامي، واتكأت هي بجانبه.. راقبت الشارع بصمت تنتظر منه كلمة يلقيها لتبادره الحكيَ.. قال، بينما اتكأ هو الآخر شاردًا:

- لا أتذكّر اسم صفية المستعار..

ابتسمت، تنهدت قائلة:

- حنان.. كنتُ من أطلق عليها ذاك الاسم..

نظر ناحيتها.. كانت تبتسم.. لعلها تذكّرت تلك الأيام الخوالي.. كان شيء بدماغه يأبى التذكر.. أردفت:

- لا أعلم لها خبرًا.. مُذ سنتين أو أكثر..

جلست باستقامة، وكذلك فعل هو.. قبضت كفيها في كتلة.. وبدت كمن تخشّع لصوت سمعه.. قالت:

- أعتذر منك.. لكنني علمت دومًا أنها تتحيّن فُرصة لتحصل منك على طلاقها..

راقبها بصمت.. ولم يُبد ردّة فعل.. كان يعلم حقًّا أنها لم تُكِنَّ له الودّ الذي منحها إياه..

- خشيت إن أخبرتك أن تعلم أنني من بثَثْتُك سرّها.. هي لم تترك يومًا ما كانت تفعله.. كانت مومسًا دائمًا..

ألقت عليه نظرة لتتبيّن فعله.. بدا غريبًا.. شرارة تتوقّد بعينيه، بحركة خاطفة أمسك عنقها بقوة.. صرخت.. ووضع كفًّا على فمها يُخرسه.. دفعها بقوة للمقعد الخلفي، اهتزّت السيارة.. وخارت قوى حليمة الشمالية دون أن تبدي ردة فعل.. راقب المرآة الأمامية، ولاحظ خروج المومس الشابة من سيارة "الكاطكاط".. شغل المحرك وانطلق مسرعًا...

لم تكن أعصابه متَّقِدة.. ولم يكن يشفق على حليمة الشمالية.. هو فقط وجد سببًا آخر ليعود لعادته؛ كان مشمئزًا من كل شيء..

أثناء قيادته السيّارة.. كان يفكّر.. فعل كل شيء من أجل صفية.. لِمَ لمْ تستطع هي ترك ما يشمئزّه ؟!

كان يراقب حليمة في كل دقيقة.. تقعد في الخلف ساكنة.. وهو كان يشق الطريق ويمخرها نحو الشاطئ مسرعًا... حمل هاتفه، واتصل بصديق... قال:

- لنلتقِ أمام الشاطئ في غضون ربع ساعة على الأكثر..

وافق المتصل.

كان فؤاد حزينًا.. أدرك أخيرًا أن سعادته في الثمان سنوات كانت كذبة فقط. كان وحيدًا طوال عمره.. وما عاد الحب الآن يردعه.. سينفّذ ما بدا له كيفما كان.. وقد صار يشمئز من صفية وكل المومسات.

وصل إلى الشاطئ، خرج من سيّارته وفتح الباب الخلفي.. نادى على حليمة الشمالية يأمرها بالخروج.. أخرجها قسرًا من السيّارة وخطواتها تتلكّأ..

رماها أرضًا.. وفي تلك اللحظة رمقت أضواء سيارة 'ميرسيديس'.. كان الشرطي قد أتى هو الآخر، ترجل من سيارته بعد أن ركنها وامتثل واقفًا بجانب صديقه فؤاد..

- أخيرا تشجّعت!

قال الشرطي مبتسمًا، وحليمة هناك جالسة على الأرض لم تفهم شيئًا.. ضحكت، ثم نظرت نحو فؤاد:

- ما الذي تريده؟.. لا شك أنك يائس لأن صفية كانت تخونك على مرأى ومسمعٍ من الكل سواك!

قهقهت... رماها الشرطي بركلة بحذائه، فبدأ الخوف يتفصّد بعروقها.. ساد الصمت لوهلة، ثم أقبل شيخ يحمل حجرًا كبيرًا.. كان يضحك مسرورًا.. ناول فؤادًا الحجر وانطلق والشرطي، أمسكا حليمة، ألصقا رأسها بالأرض.. وأكمل فؤاد البقية..

كان يضرب رأسها بكل قوة.. لم تبدِ حليمة أي رد فعل.. غير أنها صرخت قبل أن يقع الحجر برأسها.. تذكّر القطة التي كانت أول من أنهى حياته سالفًا.. ابتسم.. وفي كل مرة كانت ضرباته أقوى.. ولم يعد هناك صوت.. لا للصرخات والاستنجاد.. ولا للعظام المتكسرة.

بعد أن أنهى كل ذلك، ركب سيّارته، حمل قنينة ماءٍ يبلل بها يديه من أثر الخطيئة.. كان الشرطي والصيّاد يحملان الجثة بلا رأس.. ويحشرانها معًا بكيس كبير بعد أن يُثقلاه حجرًا..

حملها الصياد على ظهره، وانطلق نحو قاربه.. كان يبتسم.. وتارة يضحك مقهقهًا..

أما الشرطي، فقد جمع أشلاء الرأس الذي حطّمه فؤاد، بعدما أوقد النار بالشعر فاحترق.. ووضعه بكيس هو الآخر.. وحشره بصندوق السيّارة..

كانوا يجيدون كلّ شيء.. لم يكن أحد ليكتشف الجثة؛ وقد كان الصيّاد يبحر بعيدًا حتى يلقي بها بين موجات البحر الواسع.. أما الرأس المتكسِّر.. فكان الشرطي يأخذه لبيته ويطعمه كلبَه.. لم يكن ليكتشف أحد أي شيء..

وتدريجيًّا.. اختفت حليمة الشمالية وإحدى عشرة مومسًا من العالم.. وكفّر بها فؤاد عن السنوات الاثنتي عشرة التي تعرّف فيها على صفية.

***

حمل زهرة الهيدرانجيا التي اكتسبت حمرة فاقعة من أثر الدماء التي طلاها بها، حشرها في الباقة، وجعلها تتوسط الزهرات البيضاء.. كانت آخر باقة يجهّزها فؤاد احتفالًا بموت آخر مومسٍ يُنهي حياتها بيديه..

بدت الباقة جميلة، حملها وسار خارجًا.. ألقى كعادته تحيةً على جيرانه، وهم بادلوه بمثلها.. ركب سيّارة التاكسي، وانطلق.

سلك الطريق الأطول باتجاه الشاطئ.. لا يلوي على شيء..

لم يكن هناك ما يزعجه.. بدا هادئًا مرتاحًا، وقد كان حَسن المظهر.

لا يستطيع الاتصال بأيٍّ من صديقيه.. سيترحّم بنفسه على آخر عشرينية دهسَ حجرُه رأسَها.. سيلقي تلك الباقة في البحر علّ تعازيه الحارة تصلها.

كانت الرمال الذهبية خشنة.. وهو كان حافي القدمين.. يحمل بيمينه الباقة، ويتقدّم نحو البحر بهدوء..

الموجات الصغيرة المرتخية؛ كانت برودتها منعشة، خاصة وأن الوقت صيف.. والشاطئ ممتلئ بالناس.

كان فؤاد يسير على غير هدى.. لم ينتبه له أحد.. الأمواج العاتية تلطمه، وهو نحوها يسير.. إلى أن اختفى جسده عن الأنظار.

تنبّه له بعضٌ ممن راقبوه يلج البحر.. وصاروا يمخرون الأمواج بحثًا عنه.. فؤاد كان يمسك بالباقة الأخيرة.. أفلتها وسط لجة الماء.. وأفلت بعدها أنفاسه للأبد. وهناك؛ استلقى مع الموسات الاثنتي عشرة تحت قاع البحر الصاخب.

ذُبُولٌ

"يمكن للحب أن يذبُل مهما اشتدَّت الصّبابة"

- ماذا الآن؟

سأل الشرطي.. كل شيء يبدو مثاليًا.. لكن فكرة الانتهاء من تلك المجزرة بعثت في نفسه شجنًا عميقًا..

شغَّل الراديو وحسّن من جلسته.. لم تبحث الشرطة عنهم.. وها هم ثلاثتهم داخل سيّارة 'الميرسديس' ينتظرون مآلًا ينتهي به كل شيء..

أجابه فؤاد الذي كان يجلس بجواره:

- نفترق!

قال، وساد الصمت من جديد إلا من وشوشات الراديو التي استعصى على أحدهم فهمُها.

كان الصيّاد متكئًا في هدوء.. ألقى عليه الشرطي نظرة من مرآته الأمامية، تبادلا النظرة..

فتح فؤاد الباب، وألقى بقدمه خارجًا.. أغلق الباب واتجه صوب صندوق السيّارة.. آثار دماء ما تزال هناك.. مسحها بكفّه.. كان الصياد يشاهده..

- أ يجب أن نخبره الحقيقة؟

سأل الصياد وعيناه قائمتان نحو فؤاد المغادر، أجابه الشرطي:

- أفضّل أن يعتقد في نفسه ما يشاء..

شغّل محرّك السيارة.. أردف:

- يومًا ما سيتذكّر ما حدث قبل ثلاث سنوات.. وحينها سينسى ما حصل في هذا الوقت.. سيظل تائهًا بين ذكرياته فقط! سألته قبل أسبوعين: هل من أخبار عن زوجتك؟.. لكنه ما يزال يعتقد بأنه افترق معها لأنها طلّقته!

خرج الصيّاد من السيّارة بعدما ودّع الشرطي على أن يفترقا للأبد.

استقل الصيّاد فيما بعد سيّارة أجرة.. وركب باتجاه بيت صديقه فؤاد.. كانت الليلة الأخيرة التي يستطيع ملاقاته فيها وكان هو يتمنّى راجيًا لو استطاع مكاشفة فؤاد بالحقيقة..

جلسا معًا.. كان فؤاد مشغول البال بصفية، والصيّاد يحاول جهده ليسلّي عنه ما به.. أخبره أنه سيتزوّج ليستطيع عيش حياة طبيعية لأوّل مرة.. ونصحه هو الآخر أن يترك ذكريات صفية ويجد شيئًا آخر يفعله غير التفكير الطويل بها.. ولم يستطع أبدًا إخباره بأي شيء..

وتفارقا.. وللأبد.

***

شتاء 1996 عقد الأصدقاء الثلاثة وعدًا بين أحضان غرفتهم الضيّقة.. كانوا، ثلاثتهم، يسعون للانتقام.. لم تكن حياتهم سهلة..

انحدر الصيّاد من أسرة سعيدة.. لكن؛ يومًا ما دُمِّرت حياتهم بسبب مومس.. إذ كان والده يقصد الفنادق بسببها.. ولمّا علمت والدته بالأمر مرضت بشدة حتى فارقت الحياة.. وفيما بعد، تخلى عنه

والده لأجل المومس وعاش حياة صعبة بمدينته البيضاء.. وكان في كل يوم يقسم أن يأخذ انتقامه لوالدته..

أما الشرطيّ؛ فقد كانت والدته نفسها مومسًا لا تدري مِن مَن حبلت بابنها.. ولمّا أنجبته، وصبرت عليه حتى صار ذا سبعة أعوام.. رمته إلى الشوارع لتتقاذفه، ولو لم تتكفّل به وبتعليمه أسرة ميسرة الحال لما كان حيًّا يرزق كل هذا الوقت.. تُخلي عنه فيما بعد.. ورممته الأسرة خارج بيتها لمّا خشيت من تصرّفاته.. ففي نفسه كره والدته.. وأراد يومًا أن يذيقها مثل ما ذاقه من العذاب والألم.. وكان قرارهم جديًّا..

وفؤاد.. كان يريد الانتقام من حياته نفسها.. لم يكن له سبب محدد.

ولمّا أن قرّروا الأمر، وبعد ثماني عشرة سنة من اتفاقهم، نفّذ فؤاد أكبر مجازفة في حياته..

كان ذلك لمّا اتبع صفية لأيامٍ ليجدها تقصد الفندق كلّ مرة دون أن تخبره.. وعلِم حينها أنها ما تزال مومسًا وإن تزوّجته!

تركها حتى أتت البيت مساءً.. وشُعاع السماء يخفت، قال وهو يصُف زهرات الهيدرانجيا البيضاء بالمزهرية:

- تتبّعتك لأيام.. ورأيتك تذهبين للفندق ولا تخرجين منه إلا بعد ساعتين أو أكثر.

وقفت هي أمامه، وقد ارتعدت فرائصها، ولم تملك شيئًا تجيبه به، غادرت بهدوء وتركته ليلتها وحيدًا...

وفي الغد لما استيقظ، وجدها قد أرسلت له تسجيلًا صوتيًا؛ أخبرته فيه أنه المخطئ.. وقالت أخيرًا: إنها ستغيّر من عادتها يلزمها الوقت فقط إن انتظر هو حتى تفعل.

خرج من الدار وركب سيّارته واتجه نحو شقتها، اتصل بها، وكلّمها بودٍّ.. وهي خرجت نحوه متأنّقةً، وركبت السيّارة.

عاد لبيته، وهناك؛ أخرجت من حقيبتها وثيقة الطلاق ووضعتها على طاولة الطعام.. نظرت نحوه، قالت:

- أعلم أنك تريد إنهاء كلِّ شيء.. ولك الحق في ذلك.. فأنا لم أرغب يومًا في الارتباط بك. تزوّجتك فقط لأنتقم من حياتي الضائعة.. وطفولتي المغتصبة.. ولمّا انتقمت الآن.. ما عاد شيء يُفزعني البتة.

كان هو يقف أمام الطاولة في ذهولٍ.. وبعينيه شرارة متّقدة استغربتها صفية منه، انقض عليها وأمسك عنقها.. أفلتت نفسها بصعوبة، واتجهت نحو غرفة نومهما.. وقفت قبالة المزهرية في خوف.. تبعها هو، واقتحم الغرفة..

صرخت قائلة:

- كنت أعلم أنك تخفي حقيقتك دائمًا.. لست الرجل الذي عرفته قبل اثنتي عشرة سنة.

ابتسم قائلًا:

- ذاك الذي مسحتِ بكرامته الأرض.. ولم ترحميه لحبه!

نظر نحوها بغرابة:

- ذاك الحب تلاشى مذ علمت أنني لأكثر من عقد عشت مع امرأة مثلك!

تقدم نحوها بهدوء.. أمسكت المزهرية تهدّده، ثم ألقتها أرضًا بقوّةً.. ومن غضبها دهست كل الزهرات التي تعب هو بانتقائها من أجلها.. صرخت:

- لا تعني لي هذه الزهور شيئًا.. ضقت ذرعًا منها ومنك!

هو أنهى حياتها.. وكانت أول امرأة يفعل بها ما فعله، كسّر عظام رأسها حتى اختفى غضبه واشمئزازه.. وكلّف صديقيه بباقي المهمة..

وبعد سنتين.. انهار نائمًا ببيته.. ولمّا استيقظ، شغّل تسجيلها القديم.. وظنّ هو أنها غادرته.. ونسيَ ما حدث للأبد.

صفية لم تجد الشرطي الخائن، ولا غريمها السي بوشعيب.. والسعودي فهد.. ولم تكن حليمة الشمالية أدرى منها بها.. انتقمت صفية بطريقتها الخاصة من فتياتٍ كُنَّ بمثل سنِّها لمّا ضاعت حياتها.. وأدخلتهن قسرًا ليصرن بائعات هوى وموسات كئيبات..

وبعد كل ذاك الوقت.. تزوّج الصيّاد وحظي بحياة سعيدة.. ولم يكن الشرطي بمثل حظه، إذ عانى من كوابيس لوقتٍ طويل جعلته يفارق مضجعه لأيام..

أما فؤاد، فلم يعلم أين يجد صفية.. وأيقن بنفسه أنها لن تعود أبدًا.. ولم يجد لحياته أيّ معنى بعد اختفائها واختفاء معظم ذكرياتها من ذهنه.. قرّر أن ينهي حياته الكئيبة بنفسه ويستلقي بالبحر مع المومسات اللآتي دفنهنّ هناك بلا رؤوس.. أودى بحياتهن لأنهن مومسات يعشن على أوهامٍ.. فيخدعن الناس لينَلن مالًا..

وأخذ معه باقة من زهرات الهيدرانجيا البيضاء- لتعلم صفية أنه كان مخلصًا لها مُذ عرفها- تتوسّطهن واحدة حمراء.. كي لا يضيع جُهده هباءً..

ولم يكن يعلم.. أنه اتجه إلى أعماق البحار نحو زوجته صفية الجاثمة هناك معهن...

تـــــــــمَّـــــــت

يوم 19 أغسطس 2018

فللّه الحمد من قبلُ ومن بعد.